- كيف حصلت على التّصاميم؟

- من أصدقائنا في غزّة.. بالإضافة إلى هذا...

لوّح عمر في فخر بقرص تخزين بحجم عقلة الإصبع، ثمّ أضاف:

- ملفّ «الطّائرة العراقيّة».. رسالة الدّكتوراه الخاصّة بضابط عراقيّ متخرّج في جامعة بغداد.. وهبها لأصدقائنا في المقاومة، خدمة منه للقضيّة الفلسطينيّة.

همس هيثم بخفوت:

- هل وقع اغتياله هو الآخر؟

حدجه عمر بنظرة سابرة، وقال بهدوء:

- أعلم أنّني أطلب منك الكثير.. وبشكل مفاجئ...

قاطعه هيثم على الفور:

- الجوّ خانق بعض الشيء.. هل نتمشّى قليلا؟

سارا جنبًا إلى جنب على امتداد الشّارع الذي يصل المسجد بمنتزه عامّ. أخذ هيثم نفسا عميقا، وزفر بقوّة. كرّر ذلك مرّات، قبل أن يقول باضطراب:

– أعلم أنّك أمضيت تسعة أشهر تخطّط وتدرس المشروع.. والمخيم كان الفضاء المناسب للتهيئة النّفسيّة.. لكنّني حديث عهد بكلّ هذا.. أحتاج بعض الوقت لاستيعاب الأمر. هل تفهمني؟

هزّ عمر رأسه بابتسامة متعاطفة:

– أنت محقّ. لن أستعجلك. خذ الوقت الكافي لاتّخاذ قرارك!

***

– هل تحدّثت وعمر؟

هزّ هيثم رأسه في صمت وهو يحرّك ملعقة الحساء دون أن يتناول منه شيئا. لم يكن مزاجه أفضل ممّا كان عليه في الأمس. ليس يدري ما الأشدّ إرباكًا، أن يجهل ما يخفيه عمر أم أن يكون جزءًا منه!

– ماذا قال؟

التفت إليها في إشفاق. لم يكن بوسعه أن يشاركها ذلك الحديث بالذّات. لقد صار الآن جزءًا من السّرّ ومسؤولا عن حفظه. مهما كان قراره، فهو لن يخون الأمانة. ياسمين زوجته وأقرب النّاس إليه، لكنّه لا يقدر أن يشاركها هذا. لقد وعد عمر بالكتمان، وسيفعل. كما أنّه يرأف بها من ثقل المهمّة على كاهلها، يخشى أن تعرف تلك الحيرة والخوف والتقلّب على جمر القلق. قال مغيّرا الموضوع:

– سيأخذ إجازة ويسافر لتغيير الجوّ.. ماذا عن زيارتك إلى الطّبيبة؟

كان ذلك عامل الإلهاء المناسب ليصرف اهتمامها عن عمر وقصّته. استمع إليها دون تركيز وهي تسرد في إسهاب كلمات الطّبيبة وتفاصيل حصّة التّصوير بالموجات فوق الصّوتية التي خضعت لها ذلك الصّباح.

بينما ترد كلماتها إلى ذهنه بشكل متقطّع، غرق من جديد في أفكاره.

ما سبب تردّده؟ هل يكون عمر أشجع منه وأقدر على نصرة الحقّ؟

إنّه يؤمن بالقضيّة ولا يشكّك في الهدف. هذا ما تبذل فيه النّفوس والأموال، وما ترجح به كفّة المؤمن يوم يقف بين يدي ربّه! لقد سيقت إليه فرصة لا تقدّر بثمن. إنّه يدعى إلى نداء ربّه، أفلا يجيب؟

لقد اعتاد أن ينصر الحقّ بقلبه في صمت، فإذا تجاسر فبلسانه.. في المظاهرات والملتقيات الثّقافيّة، يتماهى مع الحشود ويذوب فيها. لكنّه نادرًا ما يفعل بيديه. وأن يجد الفرصة والفكرة ليفعل فإنّه أمر مدهش!

انشرحت أساريره تدريجيّا، وتألّقت في عينيه نظرة بشر. حدّقت ياسمين في ملامحه وقد سرت إليها عدوى السّرور:

- أدام الله هذه البسمة!

***

ما الذي تغيّر منذ إعلان هيثم موافقته؟

لقد اختلف كلّ شيء.. كلّ شيء!

كان هناك نوع من الاطمئنان في النّظرات المتواطئة التي يتبادلانها خفية من زملاء العمل، وكثير من التّناسق والحماس في السّويعات التي يمضيانها في الشّركة بعد هبوط

الظّلام، وخلوّ المبنى إلّا منهما. تلك الرّيبة التي سكنت فؤاده طويلًا، حلّت محلّها سكينة عجيبة، أنسًا بصاحبه وبهجة برفقته.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلّم «ثاني اثنين» في الغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾. يتذوّق حلاوة الآية على طرف لسانه، وهما يمضيان مساءاتهما في نقاش أو انهماك، ويستشعر وقعها سكينة صافية في قرار فؤاده حين يرفع أحدهما رأسه ليستزيد عزيمة من نظرة صاحبه.

بعد شهرين، دنا قطف الثّمرة التي تعهّداها بالرّعاية. في المختبر، طفق عمر يثبّت وحدة الطّاقة المعزّزة، على نموذج الطّائرة. حين فرغ من ذلك، انضمّ إلى هيثم في المكتب. راقبه وهو يتابع البرمجة على جهازه في تركيز، فهمس هيثم:

- أكاد أنتهي.

بعد دقائق قليلة، كان هيثم يحمّل البرنامج إلى قرص الطّائرة، ثمّ ارتقى الاثنان الدّرج بخطوات واسعة حتّى سطح المبنى. وقفا عند الحاجز الحجريّ. وضع عمر الطّائرة على حافّته، في حين فتح هيثم جهازه المحمول.

- سأشغّلها الآن.

أشار إليه هيثم بالتريّث، ثمّ أخذ يثبّت علبة ورقيّة بين عجلات الطائرة وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة. حال فراغه هتف به:

- الآن، انطلقي!

أدار عمر المحرّك، ثمّ شغّل هيثم برنامج المتابعة على شاشته، فارتفعت الطّائرة في الهواء فوق رأسيهما، ثمّ انطلقت في الجوّ لتبتعد نحو الغابة القريبة.

على الشّاشة، ظهرت نقطة حمراء تتحرّك بسرعة فوق خريطة باريس. قال هيثم:

– خطّ السّير يطابق خطّ السّكة الحديديّة. ستحلّق الطّائرة في ارتفاع منخفض فوق القطارات.. حتى لا تجذب الانتباه، بسرعة ثابتة تقدّر بمائة كيلومتر في السّاعة.. ثمّ تنفصل عنها داخل المدن، فتلازم الحدائق والمناطق الخضراء، وتنخفض السّرعة إلى النّصف.

– كم يلزمها من الوقت حتّى تصل إلى الوجهة؟

نظر هيثم إلى ساعته. كانت تشير إلى الثّالثة ظهرًا.

– ساعة ونصف تقريبا.. تعال، فلنطلب الغداء وننتظر!

حين أنهى عمر اتّصاله بالمطعم القريب، بادله هيثم ابتسامة ذات مغزى، ثمّ سأل:

– هل تشعر بالإثارة؟

– بل أشعر بالرّضا.

– أنت ترضى بسهولة! مازالت الطلبيّة لم تُشحن بعد!

هزّ عمر كتفيه وهو يقول:

– الرّضا لا يرتبط بتحقيق الغاية.. إنّما يلازمني ما دمت كنت أمضي بخطى جادّة في سبيلها!

كان يسترجع باستمرار قول سميّه، عمر بن الخطّاب رضي الله عنه: (فإنّ الخير كلّه في الرّضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر). لقد صبر طويلا، حتّى عرف الرّضا حقّ المعرفة. أردف بنظرات سارحة:

– لقد تعلّمت كيف أكون راضيا في كلّ لحظة.. لقد كان ذلك عسيرا في البداية، أشهد بذلك. لكن كلّما توغّلت في مجال الطمأنينة، استشعرت نفحات الارتياح تهبّ على فؤادي!

أصغى هيثم في تأثّر، ثمّ قال:

– أنا مدين لك.. لأنّك جررتني لأشاركك هذه التّجربة. لعلّي لست راضيًا بعد، لكنّني منفعل وداخلي يغلي حماسًا.. هل يُحسب هذا لي؟

تشاركا ضحكة رائقة، ثمّ استطرد هيثم بلهجة جادّة:
– أشعر أن حياتي بعد هذا المشروع لن تكون قطّ على نفس الشاكلة. شيء في داخلي تحرّك عن موضعه، ثار وأحدث انقلابا. ولا أحسبه يعود إلى الرّكون مجددا.. إنه الوعي بقيمة ما بأيدينا من علم، ومسارات استغلاله المدهشة. هل كنت لأتخيل يوما أنني قد أكتب برنامجا لتسيير طائرة تجسّس، يستعملها المقاومون في غزة.. فتحلق فوق ثكنات جنود الاحتلال، تجتاز حواجزهم وتتقصّى أسرارهم العسكرية! أو تنقل طرودا إلى المخيمات المعزولة وتجتاز المساحة المشغولة بالمستوطنات بين غزة والضفة؟ هل يمكن لحياتي أن ترجع سخيفة تافهة كما كانت بعد هذا؟ لا أستطيع أن أفعل.. هذا طريق سالكه لا يبغي عنه رجوعا. من هنا بدأنا.. لكنّنا لا ندري إلى أي مدى قد نصل.

بادله عمر نظرة باسمة. لم يكن بوسعه أن يضيف شيئا على قوله. لقد نطق بما يعتمل في وجدانه وشرح إحساسه بدقّة.

– والآن ما هي الخطوة التّالية؟

سأل هيثم وهما يتناولان شرائح البيتزا.

– ستظلّ الألعاب عندي في الشّقة حتّى موعد الشّحن.

– ألا يساورك القلق؟

كلّما مضى قدمًا في اتّجاه الهدف، نمت شجرة القلق في داخله. الدّخول إلى غزّة لم يكن يومًا يسيرًا، وإدخال الشّحنة الخاصّة يبقى محفوفًا بالمخاطر.

– ما هو أسوأ شيء قد يحصل؟

قال عمر على الفور:

– أن تصادر حكومة الاحتلال شحنات الألعاب! في جميع الأحوال، الألعاب تُرسل على حدة في صيغتها الأساسيّة، ووحدات رفع الكفاءة تشحن بشكل منفصل. إذا صودر أحدها أو كلّها، تبقى خسارة محدودة ومقبولة.

– نكون قد حاولنا على الأقل.. ماذا أيضا؟

– أن تقع الآلات بعد تركيبها في يد جيش الاحتلال. طبعا، يمكنهم الوصول إلى شركتنا بطريقة أو بأخرى.. أو إلى الموزّع الصّيني. لكنّنا حتما سننكر علاقتنا بالأمر. نحن نصنّع الألعاب المتطوّرة ولسنا مسؤولين عن استخداماتها من قبل العملاء!

أومأ هيثم ببطء، ثم قال:

– المسافة بعيدة بين غزّة وفرنسا.. هل يقع الرّبط بهذه البساطة بين كلّ الأجهزة المصنّعة في أرجاء العالم وكيفيّة استغلالها من قبل المقاومة الفلسطينيّة؟ هذا لا يبدو منطقيّا.

تبادلا نظرة طويلة.

«نحن في أمان». يحاول أحدهما إقناع الآخر.. ونفسه.

لم يعد بالإمكان التّراجع الآن. بقيت خطوة واحدة بعد.

***

دلفت ياسمين إلى الشّقة بعد السّاعة الرّابعة بدقائق قليلة. علّقت معطفها وحقيبة يدها عند المدخل، تخفّفت من ملابس العمل، ثمّ دخلت المطبخ. حضّرت لنفسها شطيرة تتناولها بسرعة لتُسكت جوعها، ثمّ تشرع في إعداد وجبة العشاء. عبرت الصّالة نحو ركن الطّعام، وجلست قرب النّافذة المشرفة على الحديقة الخلفيّة. أخذت تقضم شطيرتها وتلوكها ببطء وقد سرحت نظراتها إلى الخارج.

صار هيثم شديد الانشغال في الفترة الأخيرة. المشروع يأخذ من وقته الكثير، حتّى أنّه أخذ إجازة بدون راتب لشهرين ليتفرّغ لمشروعه وعمر. مازال يعمل عن بعد معظم الوقت، لكنّه يتأخّر في العودة كلّما سافر إلى باريس.. ويغيب لساعات طويلة في عطلة نهاية الأسبوع حين يزوران أهله. تنهّدت وهي تسرح بنظراتها عبر زجاج النّافذة. تأمّلت شجيرات الورد التي لم تقلّم منذ زمن. ستذكّره بفعل ذلك قريبا.

انتبهت على صوت طنين غريب يزداد اقترابا وقوّة. رفعت عينيها إلى السّماء، فلمحت طائرة صغيرة تبدو مثل ألعاب الأطفال، تنزل بشكل عموديّ مستقيم لتحطّ على العشب في حديقتها الخلفيّة!

تركت مقعدها، فتحت باب الشّرفة وسارت حتّى موقع الطّائرة التي انطفأ محرّكها وتوقّفت عن الطّنين. انحنت لتلتقط اللّعبة في فضول. لم تكن قد رأت النّموذج سابقا، لكن يمكنها الجزم بأنّها واحدة من الطّائرات التي يعمل هيثم على برمجتها.

انتبهت إلى علبة الكرتون الصّغيرة التي تلتصق بخطّاف أسفل الطّائرة. سحبتها برفق، لتقرأ الاسم الذي كُتب عليها:

«إلى ياسمين»!

رفعت حاجبيها في استغراب، ثمّ فتحت العلبة وقد تملّكها الفضول، لتجد بداخلها وردة حمراء، وبطاقة. قرأت الرّسالة المدوّنة في دهشة متزايدة:

«دمت كلّ يوم الوردة التي تعبق بأريجها حياتي.. زوجك المحبّ»!

همست في شكّ:

- هيثم؟

لم يكن اليوم عيد زواجهما، ولا عيد ميلادها.. ولا ذكرى لقائهما الأوّل! حاولت أن تجد سببا مقنعا لتلك الرّومانسيّة المفاجئة، لكنّها لم تفلح. تناولت هاتفها واتّصلت به على الفور:

- هل وصلت؟

- ليس بعد!

تفقّدت ساعتها، إنّها الرّابعة النّصف وحسب. لا يمكن أن يكون قد رجع مبكّرا إلى تلك الدّرجة. لكن تلك الطّائرة في حديقتها الخلفية.

- وصلك الطّرد؟

كانت في صوته نبرة استمتاع. قالت متسائلة:

- هل تقصد الطّائرة؟ نعم إنّها عندي.

- وصلت إذن! ممتاز.. هذا رائع! هل هبطت في الحديقة؟

- نعم.. على العشب.

سمعته يهتف لعمر:

- جهاز الملاحة دقيق بشكل مدهش!

سألت في شكّ:

- نعم.. سأنطلق قريبا. هل توصين بشيء؟

- سلامتك.

أنهت الاتّصال وهي في حيرة. أيمكن أن تصل الطّائرة إليها من باريس؟ لعلّ شركة توصيل قامت بشحنها ثمّ أطلقتها عند الباب؟

سرعان ما نسيت أمر الطّائرة، لكنّها لم تنس كلمات الغزل التي جلبتها الطّائرة. فكّرت أن تضع لمسات رقيقة على العشاء. قطفت بضع وردات من الحديقة ورصّفتها في مزهريّة، أضاءت شمعات ذات رائحة زكيّة ووضعتها على المائدة.. ثم عادت إلى المطبخ لتشرع في إعداد وجبة عشاء فاخرة!

سارت رانيا في ممرّات الجامعة وعيناها تحومان في كلّ اتّجاه، بحثًا عن «بطل حرب النّجوم» الذي باتت تراسله عبر البريد الالكترونيّ.

كانت البداية، بسبب عثوره على سيلين. ثمّ استمرّت بينهما الرّسائل بشكل يوميّ تقريبا.. مثل فضفضة بين صديقين. بشكل غريب، وجدته أكثر لطفا في رسائله منه في التّواصل المباشر! لم يكن يتعمّد إغاظتها ولا تعكير مزاجها.

تحدّثا عن أشياء كثيرة، يتحدّث فيها المراهقون عادة. الفرقة الموسيقيّة المفضّلة، وفريق كرة القدم، لاعب التّنس المفضّل، مسلسل الرّعب الأكثر حماسا، البلد الذي يتمنّى كلّ منهما زيارته.. ووجبته المفضّلة!

بعد فترة، أصبحت تغربل الأخبار التي تنقلها إلى سكينة، وتحتفظ ببعض التّفاصيل لنفسها. داهمها إحساس بأنّها تتجسّس على شابّ وتنقل أخباره إلى والدته خلسة. ولم يكن ذلك يروقها. إنّها تحبّ سكينة، لكنّها لا تقبل على نفسها لقب «الجاسوسة»!

– ها أنتِ! ما الأمر الهامّ الذي لا يُكتب في رسالة؟

أزعجتها لهجته المتهكّمة. كان يعود ليكون كزافيي الذي تعرفه.. وهو يختلف عن الولد الظّريف الذي تبادله الرّسائل! كان ذلك مربكا وكريهًا في آن. قالت بلهجة جادّة:

– سكينة ستحاول استعادة حضانة سيلين. ستمثل أمام المحكمة.. لعلّها تكون فرصتها الأخيرة. لذلك...

قاطعها بجفاف:

– هل هذا ما أردت رؤيتي من أجله؟

حدّقت فيه غير مصدّقة:

- وهل هناك أهمّ من هذا؟

وضع كفّيه في جيوبه في حركة لامبالية وقال بلهجة هجوميّة:

- ما المطلوب منّي؟

- سكينة تحتاج مساندتك.. هل بوسعك الشّهادة أمام المحكمة؟

رمقها بنظرة طويلة وبدا منهمكا في تفكير عميق، ثمّ أضاءت قسماته وهو يهتف:

- عندي فكرة أفضل! قد أقنع والدتي الحقيقيّة باحتضانها!

فغرت فاها في صدمة، وحدّقت فيه مبهوتة. كانت فكرته تنمّ عن قسوة شديدة وكراهية لا حدّ لها. تمتمت في انزعاج وهي تبتعد بخطوات سريعة:

- انس أنّني طلبت منك أمرًا!

دلفت إلى الشّقّة وشعور الغيظ لما يخفت داخلها. ذلك الفتى البغيض، أين تعلّم أن يكون جلفا فظّا بلا رحمة؟ فوجئت بياسمين تتوسّط رنيم وسكينة وقد غشيهنّ انطلاق وسرور. هتفت وهي تنضمّ إليهنّ:

- أرى أخبارًا سارّة في الأفق.. بشّرن!

هتفت سكينة وعيناها تتلألآن سعادة كأنّ الخبر يخصّها:

- ياسمين حامل!

- ولد أم بنت؟

همست ياسمين ببهجة لا تخفيها:

- لا أدري بعد.. كلاهما عندي سواء!

جلست رانيا إلى جوارها وقالت في حماس:

- لو كانت بنتا، ماذا تسمّينها؟

- أحبّ اسم جويرية، وهيثم يفضّل آمنة!

حملقت فيها رانيا في استغراب ثمّ هتفت:

- جويرية وآمنة؟ وأمّها ياسمين؟

ارتفعت ضحكات الفتيات، ثمّ قالت رنيم:

- وماذا لو كان ولدًا؟

- نتّفق أنا وهيثم على اسم واحد.

قاطعتها رانيا في عجل:

- لا تقولي بصوت عالٍ، اهمسي في أذني!

ثمّ أدنت رأسها من شفتيها، فهمست ياسمين. رفعت رانيا ذراعيها وهتفت:

- جميل.. دوركما لتحزرا الاسم!

أخذت رنيم وسكينة تطرحان الأسئلة ورانيا تجيب:

- قديم أم حديث؟

- عابر للعصور!

- اسم مركّب أم لفظ واحد؟

- مركّب!

- هل له سميّ في التّاريخ؟

- نعم!

- المعاصر أم الغابر؟

- الاثنان! الآن احزرا!

***

وصلت فاطمة إلى مطار باريس «أورلي» مساء يوم السّبت. كانت في استقبالها ياسمين وهيثم، ترافقهما زهور. تداولوا على عناقها مرحّبين، قبل أن يستقرّ بهم المقام في سيّارة هيثم.

- كيف أنت؟ وكيف هو الجنين؟

ابتسمت ياسمين في ضعف، وقالت مهوّنة:

- سنكون بخير.

بدأ الأمر بنزيف خفيف، تبعته آلام بطن حادّة. بعد زيارة الأسبوع الماضي لطبيبة النّساء، ألزمتها بالرّاحة التّامّة. أخذت إجازة مرضيّة من عملها، وبقيت في البيت، حتّى جاءت والدتها لترعاها إلى أن يحين موعد ولادتها.

تمتمت زهور في استياء:

- هؤلاء هنّ بنات اليوم.. يرهقن أجسادهنّ ويتكبّدن مشقّة فوق طاقتهنّ من أجل الخروج للعمل.. ثمّ ينتهين طريحات الفراش! ما كان عليك يا حبيبتي لو نأيت بنفسك عن هذا منذ البداية، وحفظت نفسك وولدك!

تمعّر وجه ياسمين ولم تردّ، فقال هيثم مترفّقا:

– ياسمين تعمل في مكتب مريح، ومكان عملها قريب من البيت.. لا تركب وسائل نقل ولا تجهد نفسها.. لكنّ هذا قضاء الله. بعض الحمل يكون أكثر مشقّة من غيره.. عسى أن يكتمل على خير!

لوت زهور شفتيها في عدم اقتناع، وأمّن جميعا على دعائه.

كانت قد أنهت شهورًا ستّة، وقطعت أيّاما قليلة في الشّهر السّابع. عليها أن تحافظ على جنينها في مكمنه شهرين بعد، حتّى تكون الولادة طبيعيّة.
توقّفت السيّارة عند منزل زهور التي أصرّت أن يكون العشاء عندها، بينما كان هيثم يستعجل المضيّ قبل هبوط الظّلام. يُدرك أنّ والدته تتحايل عليهم ليمضوا اللّيلة عندها. ولولا تعب ياسمين لما استجاب. لكنّها لا تتحمّل السّفر الطّويل بالسيّارة. ولعلّ فاطمة أيضا ترجو تلك الجلسة الرّائقة مع صديقة عمرها قبل أن ترتدي عباءة الأمّ وتشرع في رعاية صغيرتها الوحيدة.

انتبهت ياسمين على رنين هاتفها بينما يُنزل هيثم حقائب والدتها المثقلة كما العادة بأطايب الوطن وخيراته. ردّت على اتّصال رنيم بحفاوة:

– قلقت عليك.. ماذا قالت الدّكتورة؟

– عنق الرّحم مفتوح بشكل مبكّر.. يجب أن أحظى بالرّاحة التّامّة...

ضحكت رنيم لتسرّي عنها:

– الزمي السّرير إذن، وتصرّفي كالملكة!

ابتسمت ياسمين وهي تتحسّس بطنها المتحجّر بعد ساعة أمضتها جالسة منذ المطار، بينما أضافت رنيم:

- كنت لأطلب منك الحضور للشّهادة في قضيّة سكينة.. لكنّ وضعك لا يسمح بذلك الآن. لا عليك.. لدينا عدد كافٍ من الشّهود.

تمتمت ياسمين في اعتذار:

- متى تتوقّعين أن تكون الجلسة؟

تنهّدت رنيم:

- لا أدري بعد.. إنّهم يماطلون بشكل مزعج!

هذا ما يفعلونه تحديدًا. لقد جمعت الوثائق وقدّمت ملفّا متكاملا منذ شهور، حتّى تحظى سكينة بإعادة نظر في حكم الإبعاد عن طفلتها. لكنّ المحكمة تتعلّل بكثرة القضايا المدرجة في جدولها، وترفض تحديد موعد الجلسة بعد!

- عسى أن أكون أفضل حالا حين يأتي الموعد.

***

مضت الأسابيع سريعة، تتدافع أيّامها محمّلة بدفقات من الأمل والخشية. أصبحت الألعاب متاحة في السّوق، تتصدّر واجهات المحلّات المختصّة، وتلقى القبول والاستحسان. كان نجاحًا تجاريّا حقيقيّا.. بالإضافة إلى الرّضا الذي يجلبه النّشاط الخفيّ الموازي.

جاء صوت عائشة عبر الأثير محمّلا بموجات الفرح:

– جاءتنا تأشيرات الدّخول إلى فرنسا اليوم! لقد انتظرت طويلا حتّى تقرّ عيني بك عريسًا.. عسى أن أسعد قريبا برؤيتك وعروسك سعيدين مباركين!

أصغى عمر إلى كلماتها في ارتياح ثمّ قال:

– كوني جاهزة خلال أسبوع.. سأحجز تذاكر السّفر لتحضري والأولاد قبل الزّفاف بفترة كافية. أريد أن آخذكم في سياحة بين المعالم الباريسيّة!

اتّفقا على المواعيد، ثمّ أنهى عمر الاتّصال وقد ملأه صوت شقيقته المرتعش فرحًا وحبّا ودعواتها الحارّة بالفلاح والصّلاح انتعاشًا وبشرًا.

كان قد زار آية ووالدها منذ أسبوعين. نجاح المشروع الذي شغله في الشهور الماضية كان يجب أن يُتوّج بفرح عارم وعائليّ.. ولم يكن هناك أفضل من عقد قران وزفاف متتابعين، ليجتمع أفراد العائلتين والأحباب والأصحاب، يشاركونه سعادته بالاستقرار والاطمئنان.

انتبه حين أخذ هاتفه يومض معلنًا اتّصالًا صباحيّا من شريكه.

– أنا قادم على الفور!

فكّر عمر وهو ينزل الدّرجات قفزا، حتّى ينضمّ إلى هيثم أمام المبنى، أنّ السّنة الماضية كانت إعادة تأهيل لروحه وقلبه، وتلك السّنة كانت تحقيقا لطموحاته وتتويجًا لجهوده المتراكمة منذ تخرّج في الجامعة. كان يشعر بأنّه يسترجع ذاته القديمة، بل يعززها لتكون نسخة أفضل.

داعبه هيثم وهما يتصافحان:

– تبدو منتشيًا اليوم على غير العادة. هل تحوّل الرّضا إلى شيء آخر؟

– تهانينا.. لقد وصلت الشّحنة إلى وجهتها.

حملق فيه هيثم غير مصدّق، ثمّ تمتم في تأثّر:

– حمدًا لله!

كان عمر قد تلقّى اتّصالا مساء الأمس من أبي الحسن. عبرت الألعاب إلى غزّة، في حين سبقتها الأجهزة التكميليّة في الوصول منذ يومين. أمّا تعليمات التّجميع والتّشغيل فأرسلت بشكل منفصل في حقيبة سفر أحد التّجار المنتظمين عبر معبر رفح.

ابتسم عمر في غموض وقال وهما يمشيان في اتّجاه السيّارة:

– سيّدي المدير، أحتاج إجازة مطوّلة.. ثلاثة أسابيع على الأقل.

رفع هيثم حاجبيه في دهشة، ثمّ ما لبث أن استوعب، فهتف في فرح:

– أخيرًا ستدخل القفص الذّهبيّ يا أخي! مبارك! هل حدّدت الموعد؟

– بعد أسبوعين.. أهلي قادمون من المغرب خلال أسبوع إن شاء الله، وأحتاج التفرّغ للاهتمام بضيافتهم...

لم يفاجئه الموعد القريب، فقد كانت العروس جاهزة منذ أمد، والحفل العائليّ المضيّق لا يتطلّب تحضيرات كثيرة. لقد أجّل عمر زفافه منتظرًا استقرار المشروع بشكل كامل، والآن لم يعد هناك ما يمنعه من الاحتفال. أومأ هيثم موافقا:

– حقّك! لا بأس بذلك.. على الأقلّ نأخذ إجازاتنا في أوقات متباعدة، لضمان استمراريّة العمل في الشّركة.

جلس هيثم وراء عجلة القيادة وركب عمر إلى جواره، ثمّ التفت إليه في اهتمام:

– هل اقترب موعد الوضع؟

– الحمل في الشّهر الثّامن بعد.. آمل أن يظلّ مستقرّا حتّى التّاسع.

– خيرا إن شاء الله.. ماذا قرّرت أن تسمّيه؟

شغّل هيثم المحرّك فتقدّمت السيّارة عبر الشّارع الهادئ على مهل. قال في فخر:

– عزّ الدّين!
– ما شاء الله! عسى أن يكون له نصيب من اسمه!

ضغط هيثم على الفرامل في حدّة لتتوقّف السيّارة بشكل مفاجئ. هتف عمر في قلق:

– ما الأمر؟ ما لك توقّفت؟

– تلك الشّاحنة!

رفع عمر عينيه ليبصر الشّاحنة السّوداء التي خرجت فجأة من الطّريق المتعامد دون احترام لقواعد المرور. حدّق في زجاجها المظلم الذي يخبّئ ملامح السّائق، ثمّ توجّه بصره ناحية السيّارة الثّانية التي فرملت بدورها بصوت مزعج، وهي تدخل الشّارع من

الاتّجاه المعاكس. توقّفت على بعد خمسة أمتار من موقع سيّارة هيثم، ونزل زجاج نوافذها الأماميّ والخلفيّ من النّاحية التي يراها هيثم وعمر بوضوح.

كان كلّ شيء سريعًا ومباغتًا.

شلّت الصّدمة حركات عمر وهيثم وأخرست لسانيهما وغشيهما خدر شامل. لبثا يتابعان المجريات في شبه غياب، وكأنّما قد انفصلا عن المشهد الغريب الذي يسري إزاءهما.

خلف زجاج النّوافذ، ظهر وجهان متواريان وراء نظارات شمسيّة عريضة تخفي قسماتهما الأوروبيّة. ثمّ، وبشكل غير متوقّع، ارتفعت فوّهات مسدّسات مزوّدة بكاتم للصّوت، لينطلق وابل من الرّصاص في اتّجاه مباشر وعن سابق إصرار وترصّد.

انهمرت الرّصاصات القاتلة مثل المطر. أنّ عمر في ألم حين أصابته الرّصاصة الأولى، ثمّ انكفأ على وجهه ليرتطم رأسه بلوحة قيادة السيّارة. أحصى عشرين رصاصة، ارتدّ بعضها بعد اصطدامه بهيكل السيّارة، في حين شقّ آخر زجاجها وعبره في اتّجاه الهدف.

قبل أن يغيب عن العالم، كان آخر ما وقعت عليه عيناه، صاحبه المضرّج بدمائه.

مكتبة Telegram @t_pdf

-٢٧-

ارتفع رنين الهاتف بصوت مزعج شقّ فضاء أحلامها. تمطّت رنيم في كسلٍ وهي تمدّ ذراعها لتلتقط هاتفها الذي يومض بإلحاح ويهتزّ على المنضدة القريبة عند رأسها. ألقت نظرة على السّاعة قبل أن تردّ على الاتّصال الوارد. التّاسعة والنّصف صباحًا.

- مرحبا!

غمغمت بصوت ملؤه النّعاس.

– رنيم، هل أنت نائمة؟

– نعم، لقد أويت إلى السّرير في وقت متأخّر.. ألم نتّفق على أن آخذ اليوم إجازة؟

هتف جورج في اعتذار:

– أعلم.. لم أنس ذلك. لكنّ المسألة عاجلة. وصلني اتّصال من المركز الصحيّ بالضّاحية الجنوبيّة. نُقل إليهم أحد عملائنا، مصابًا بطلق ناريّ. وجدوا بطاقتي بين متعلّقاته الشّخصيّة، ولم يتمكّنوا من الوصول إلى عائلته.. وأنا في طريقي إلى المحكمة. لن يمكنني أن أتفرّغ لمعاينة الوضع.

تمتمت رنيم وهي تستقيم جالسة:

– بالتّأكيد.. سأذهب. ما اسم العميل؟

– عمر الرّشيدي.

كانت تمسك قلمًا وتهمّ بتدوين الاسم على قصاصة ورق. لوهلة، التبس الأمر عليها. شعرت أنّها تختبر كابوسًا قديمًا، تهبّ نفحاته بقسوة مرّة أخرى.

– هل سمعتني؟

– نعم. بالتّأكيد.. سأتقصّى الأمر.

أنهت الاتّصال ثمّ زفرت بقوّة. طلق ناريّ؟ في أيّ مصيبة جديدة أقحمت نفسك يا عمر؟ ثمّ انقبض صدرها. لم يقل جورج أيّ درجة من السّوء كان عليها الوضع.

تململ شهاب على السّرير إلى جوارها، ثمّ فتح عينيه. بادلته بسمة ناعسة، ثمّ عادت إلى وضع الاستلقاء مجبرة أساريرها على استرخاء لا تشعر به.

كان قد وصل مساء الأمس إلى باريس، فتركت شقّتها مثل كلّ مرّة ليمضيا فترة زيارته في فندق يقع في الدّائرة التّاسعة، حيث الحياة اللّيليّة تتميّز بالحيويّة، والفرص كثيرة لقضاء مساءات ممتعة، بعد أن تكون قد صرفت معظم أشغالها. تحاول في كلّ مرّة تفريغ يومين أو ثلاثة بالكامل ليغتنما أكثر ما يمكن من الوقت معًا. لكنّ إجازة اليوم تبدأ بشكل سيّء.

همست في دلال وهي تداعب أطراف خصلاته بأناملها:

– عد إلى النوم، سأغيب ساعتين على الأكثر وأرجع حتّى نتناول الإفطار معا.

رفع حاجبيه في دهشة. لم يكن هذا ما أعلنته بالأمس، حال وصوله.

– ألست في إجازة؟

تنهّدت ثمّ قالت في أسف:

– إنّها حالة عاجلة. لن أتأخّر!

طبعت على وجنته قبلة سريعة، ثمّ انسلّت من السّرير. ارتدت ثيابها على عجل وسرّحت شعرها المتموّج وهي تطالع وجهها في المرآة بنظرات يسكنها القلق.

استقبلتها خارج مبنى المستشفى أفواج من الصّحفيّين الذين ينتظرون تصريحات طازجة بشأن حادث إطلاق النّار. شقّت طريقها إلى الدّاخل، يطاردها صوت مراسل إحدى القنوات التّلفزيّة ينقل المستجدّات في بثّ مباشر:

- وصل المصابان منذ ساعة إلى مستشفى الضاحية الجنوبيّة، ولازلنا ننتظر توضيحات أكثر من الجهات الأمنيّة عن حقيقة المنفّذين ودوافعهم...

تجاوزت الزّحام وهرولت عبر ممرّات المستشفى حتّى وصلت عند قسم الطّوارئ. هتفت لاهثة:

- عمر الرّشيدي.. كيف حاله؟

- هل أنت من عائلته؟

- محاميته.. لقد وصلنا اتّصال من طرفكم.

- انتظري رجاءً.

غابت الممرّضة لدقيقتين، ثمّ رجعت وبرفقتها أحد الأطبّاء. سألها في اهتمام من جديد:

- هل أنت من عائلة المصاب؟

أظهرت ببطاقتها المهنيّة وهي تقول:

– أنا محامية.

كانت تدرك ضرورة التكتّم الذي يلتزم به الطّاقم الطبيّ أمام الاهتمام الإعلاميّ الكثيف بالحادثة.

– لن أخفي عنك.. الحال سيّئة. لقد وصل مصابان بطلقات ناريّة عديدة لكلّ منهما.. أدخلنا الأوّل إلى الجراحة فورًا نظرًا لإصاباته الخطيرة.. السيّد عمر تحت الملاحظة، لكنّه فاقد للوعي. لم نستطع إدخاله إلى الجراحة على الفور.. لأنّ طاقمنا غير مكتمل اليوم. ننتظر قدوم الجرّاح في وقت قريب.

قاطعته في لهفة:

– كيف هي الإصابة؟

– لحسن الحظّ، الرّصاصات لم تصب الأعضاء الحيويّة.. رصاصتان على مستوى الكتف، ثالثة على الذراع.. وأخرى أصابت عظم الترقوّة.. لكنّه فقد دمًا كثيرًا.

– هل يمكن نقله إلى مستشفى آخر؟

– أخشى أنّ نقله سيزيد من تأزّم الحالة. من الأفضل أن ننتظر وصول الجرّاح.

أومأت في استسلام، ثمّ خطت في وهن نحو مقاعد الانتظار. شعرت بركبتيها تخونانها. ألقت بجسدها على الكرسيّ الأقرب إليها، ثمّ زفرت لتخفّف تشنّج أعصابها.

أيّ مصيبة هذه؟ أربع رصاصات؟ هذا يبدو مثل حرب عصابات! لم تستطع أن تفكّر في أيّ شيء آخر. كلّ ما خطر ببالها حين اتّصل جورج هو احتمال إصابته برصاصة طائشة، لا يمكنها توقّع ظروف وصولها إليه، لكنّه احتمال أقلّ تشاؤما. كيف

يمكن لشخص سويّ وطبيعيّ، دكتور محترم ومسالم أن يتلقّى ذاك العدد من الطّلقات دون أن يكون مستهدفا بشكل شخصيّ؟

مرّت الدّقائق طويلة وثقيلة. بعد نصف ساعة، عادت إلى مكتب التّمريض. سألت في توتّر:

- هل وصل الجرّاح؟

- للأسف، لديه جراحة مجدولة بشكل مسبق في مشفى آخر.. إنّنا نحاول إيجاد بديل.

- بسرعة أرجوك!

هزّت الممرّضة رأسها في تفهّم، ثمّ انبرت تجري اتّصالات شتّى بحثًا عن الجرّاح المنشود.

عادت إليها رنيم بعد أن انقضت ساعة كاملة على ترقّبها في صالة الانتظار. فهزّت الممرّضة رأسها في أسف وقالت:

- إن كان محظوظا، فستنتهي الجراحة الأولى في وقت قريب...

في تلك اللّحظة، لمعت في رأسها فكرة مجنونة. قالت رنيم في حزم:

- هل إذا جئتكم بجرّاح، تسمحون له بإجراء الجراحة؟

أجرت الممرّضة اتّصالا سريعا، ثمّ قالت:

- نظرًا للحالة الحرجة، وافقت إدارة المستشفى!

على الفور، تناولت رنيم هاتفها. قالت حين وصلها صوت مخاطبها:

– شهاب.. أحتاج منك معروفًا. هل يمكنك القيام بجراحة عاجلة الآن؟

*

هرولت لتلتقيه عند مدخل المستشفى. لم تكن تفعل شيئا منذ الصّباح غير المراوحة بين قاعة الانتظار والرّكض في الممرّات. في الخارج، لم يبرح الصّحفيّون مواقعهم رغم غياب أيّ جديد. هتفت وهي تشدّ ذراع زوجها في امتنان:

– شكرا لمجيئك بهذه السّرعة.

– ما الذي يجري هنا؟

– سأشرح لك لاحقا.. ليس أمامنا وقت نضيّعه.

كانت قد أرسلت إليه العنوان منذ نصف ساعة، فارتدى ثيابه على الفور وطلب سيّارة أجرة. كانت تلك الوسيلة الأسرع. لبّى طلبها دون تردّد ولم يسأل عن التّفاصيل. لقد بدت منهارة على الهاتف وعلى وشك البكاء. الآن، وهو يسير برفقتها في ممرّ المستشفى، يراوده فضول غريب تجاه هويّة المصاب الذي تتأثّر بسببه إلى تلك الدّرجة. لم يكن عميلا عاديّا.. هذا مؤكّد.

استقبله مدير المستشفى في مكتبه. تأكّد من وثائق هويّته وبطاقته المهنيّة، وسأله عن خبراته السّابقة، ثمّ جعله يمضي على تعهّد بتحمّل مسؤوليّة ما يجري في قاعة الجراحة كاملا دون محاسبة إدارة المستشفى. وقّع شهاب على مضض، لكنّه مضطرّ لاتّباع الإجراءات القانونيّة.

بعدئذٍ، توجّه إلى غرفة التّعقيم. وقفت بجواره ممرّضة، حيّته بإشارة من رأسها، ثمّ ساعدته على ارتداء سترة الجراحة المعقّمة وأدوات الحماية، ثمّ دلف إلى غرفة الجراحة. كان طبيب التّخدير بالدّاخل، والمصاب مسجّى على طاولة العمليّات.

- دكتور، كلّ شيء جاهز.. هل نبدأ؟

أومأ موافقا، ثمّ خطى باتّجاه ساحة معركته. تطلّع إلى وجه المريض الذي يختفي تحت قناع التّخدير، ثمّ عادت نظراته إلى جسده الذي كُشف جزؤه العلويّ، حيث علقت الرّصاصات. لو أنّه أخطأ ملامحه، فلا يمكنه أن يخطئ أمارات الحروق الباهتة التي خلّفتها عمليّات تجميل متكرّرة. تنهّد. ثمّ شرع في إعطاء أوامره إلى طاقم الجراحة المرافق له.

*

عادت إلى غرفة الانتظار مكرهة. ما حسبته زيارة سريعة وخفيفة قد غدا مشوارًا طويلا ومرهقًا. غاب شهاب بالدّاخل منذ ساعتين، اتّصل خلالها جورج ليطمئنّ إلى المستجدّات. ثمّ جاء رجلا شرطة ومحقّق. تحدّث المحقّق إلى الطّاقم الطبيّ، ثمّ جلس ينتظر هو الآخر.

اقتربت رنيم في هدوء وسألت:

- هل أنت هنا من أجل حادثة إطلاق النّار؟

- أنت تعرفين المصابين؟

- أنا محامية أحدهما.. الدكتور عمر الرّشيدي. هل عرفتم من الفاعل؟

هزّ رأسه علامة النّفي، ثمّ أردف:

– لقد أخذنا مواصفاتهم من شهود عيان، ونحن نسعى في إثرهم. هل تعلمين إن كان للضّحيّة عداوة معروفة؟

هزّت كتفيها وهي تقول:

– لا أظنّ أنّ لديه عداوات بتلك القوّة! أقصد، في مجال البحث العلميّ، قد تحصل مناوشات وتنافس على المشاريع.. لكنّ الأمر لا يصل إلى إطلاق النّار!

– ماذا عن المصاب الثّاني؟ لقد كانا يركبان سيّارته أثناء الحادثة.. هل تعرفين طبيعة علاقته به، هيثم الأندلسي؟

– من؟

فغرت رنيم فاها غير مصدّقة. هيثم؟ تأتأت في ذهول وقد رحلت أفكارها إلى ياسمين:

– إنّهما.. صديقان.. أنت متأكد؟ هذا اسم المصاب؟ يا إلهي.. عن إذنك!

غادرت المقعد على عجل. أمسكت هاتفها تحدّق في شاشته بكفّ متحجّرة. إنّها تجلس هنا منذ ساعات، ولم يخطر ببالها أن تسأل عن هويّة مرافق عمر. الآن، عليها أن تبلّغ ياسمين بالحادثة.. وهي لا تعرف كيف تفعل!

على الشّاشة العملاقة التي تتوسّط بهو المستشفى، كانت نشرة الأخبار تنقل مشاهد من موقع الحادثة. ظهرت سيّارة هيثم التي تهشّم زجاجها الأماميّ والأيسر من جهة السّائق كليّا، وعلقت رصاصات كثيرة بهيكلها. كان المراسل يحادث المارّة، لعلّهم يصفون تفاصيل الأحداث التي شهدوها. لكنّها لا تسمع شيئا فالصّوت مكتوم. تقرأ عنوان الخبر العاجل:

«إطلاق نار إرهابيّ في حيّ سكنيّ جنوب العاصمة».

كان عليها أن تعجّل بإخبار ياسمين، قبل أن يصلها النّبأ بطرق أخرى أشدّ قسوة!

***

لم تر هيثم ذلك الصّباح. خرج مبكّرا كعادته، بينما نامت حتّى وقت متأخّر كعادتها منذ بداية الحمل. تذكر بشكل مشوّش وجهه القريب وكلمات همس بها إليها قبل مغادرته. لم تكن واثقة، ربّما كون المشهد الضّبابيّ جزءًا من حلمها.

تركت سريرها، وخطت برفق باتّجاه المطبخ، وهي تدفع بطنها المنتفخ أمامها. أحسّت بوخزات مفاجئة وبتصلّب عضلاته. تأوّهت وهي تقترب من الأريكة وتلقي بجسدها عليها.

السّاعة قد تجاوزت العاشرة. تسمع ضوضاء قادمة من المطبخ. إنّها لا شكّ فاطمة، تحضّر وجبة الغداء. ابتسمت وهي تتمالك نفسها لتقف من جديد. أصبحت متواكلة جدّا منذ وصولها. سارت ببطء حتّى أشرفت على باب المطبخ. همست برفق:

– أنت مبكّرة كعادتك!

التفتت إليها أمّها وهتفت في دهشة:

– لماذا غادرت السّرير؟ الإفطار جاهز.. سأحضره إلى هناك.

– لقد أردت التحرّك قليلا.. أشعر بالخمول. هلّا جلسنا في الشّرفة؟ الطقس جميل اليوم...

هزّت فاطمة رأسها في استسلام. جفّفت كفّيها، ثمّ تناولت طبق الإفطار ولحقت بها إلى الشّرفة. جلستا متقابلتين، تحتسيان القهوة على مهل، وتقضمان من قطع التوست المدهون بالمربّى والزّبدة.

لم تكن الشّقة كبيرة، لكنّ فاطمة تحبّ أن تشعر بفائدتها، فتنشغل لساعات في أعمال البيت، ترتّب الغرف وتفتح نوافذها للتّهوية، تبسط الشّراشف في الشّمس وتنفض السّجاد، تكنس ثمّ تمسح الأرضيّة، تزيل الغبار، ثمّ تنشر الغسيل، ترتّب الملابس وتقضي معظم وقتها في المطبخ، بين طهو وغسيل أوانٍ وتجفيف وترتيب لها. كأنّها خلقت لتفعل ذلك طيلة اليوم بلا كلل أو ملل.

في الأثناء، تستلقي ياسمين على الأريكة، مجبرة على الرّاحة رغما عنها، بين كفّيها كتاب تتصفّح فيه قليلا، ثمّ تسرح طويلا عبر زجاج الشّرفة، ترقب الحمام وهو ينقر الحبّ الذي تنثره كلّ صباح من أجله. ومن حين إلى آخر، تداهمها آلام متقطّعة، فتحبس أنفاسها حتّى تنقضي.

قبيل الثّانية ظهرا، ارتفع رنين هاتفها. ابتسمت حين لمحت اسم رنيم على الشّاشة. ردّت وهي تنهج محاولة السّيطرة على ألمها:

- رنيم.. كيف حالك؟

فزعت رنيم حين وصلها صوتها ضعيفًا واهنًا. هتفت في شكّ:

- ياسمين.. هل وصلك الخبر؟

لعلّها حسبت أنّ أحدهم -أيّ أحد- قد كفاها مؤنة زفّ الخبر الأليم إليها، فلا تكون أوّل من يقذف الحزن في صدرها.

- أيّ خبر؟

تردّدت رنيم. لم يكن الأمر كما حسبت. صاحبتها في غفلة عن المصاب الذي حلّ بعائلتها. بحثت في عقلها عن الكلمات المناسبة لنقل الفاجعة. مهما حاولت الاستعداد، فإنّ فصاحتها ولباقتها لم تسعفاها أمام فداحة الموقف. همست بصوت مختنق:

- هيثم.. إنّه في المستشفى.

شعرت بصدمة ياسمين التي تاهت الحروف عن لسانها وتأتأت في اضطراب:

- هيثم؟ كيف..؟ ما الأمر؟

- هل بوسعك المجيء؟ سأمليك عنوان المستشفى...

دوّنت ياسمين العنوان بأنامل مرتجفة، ثمّ هتفت في قلق:

- ما الذي حصل؟ هل هو بخير؟

خمّنت رنيم أنّها كلّما عرفت أقلّ في الوقت الحالي، كان أفضل. قالت متمالكة نفسها:

- إنّه في الجراحة الآن. سنعرف أكثر حين يفرغون منها.

دوّت الكلمة في أذنيها كالصّاعقة. جراحة!

اقتربت فاطمة في اهتمام وهي ترمق سحنة ابنتها شديدة الشّحوب. همست وهي تعاينها:

- هل أنت بخير؟

كانت ياسمين تستمع إلى رنين مستمرّ في أذنها وتكرّر الاتّصال بهيثم رغم يقينها بانعدام الإجابة. انتفضت من استغراقها المظلم، وهبّت واقفة مغالبة وجعها:

- يجب أن نذهب إلى باريس الآن.. سنركب القطار!

كيف لمن هي في وضعها أن تخرج الآن وتركب القطار؟ لكنها كانت مصمّمة وعاقدة العزم. دخلت غرفتها، تضع عليها جلبابا ووشاحا بما وسعها من سرعة. لملمت دمعها قبل أن تتصّل بميساء. قالت في اقتضاب:

- هيثم في المستشفى.. سأرسل إليك العنوان. طمئنيني عنه حال وصولك!

في تلك اللّحظة، وهي تطالع وجهها المكفهرّ في مرآتها قبل الخروج، رنّت كلمات هيثم ذلك الصّباح في أذنها:

«يا أجمل ملاكين في حياتي، حفظكما الله».

***

لم تطمئنها ميساء. ظلّت طيلة رحلة القطار معلّقة البصر بشاشة الهاتف. لكنّه لم يرنّ. حاولت الاتّصال بهيثم مرارًا، لكنّ هاتفه مغلق. طبعا، إنّه في الجراحة! لم تقل رنيم أيّ نوع من الجراحات هي. لكنّها لم تكن مطمئنّة. خلال ساعة ونصف السّاعة، لم تتّصل ميساء ولا رنيم ولا هيثم.. ولم يردها أيّ خبر. مالت فاطمة نحوها وهمست بصوت ملؤه الجزع:

– ادعي له، فأنت على سفر.

تمتمت بخفوت، وكفّها على بطنها:

– يا ربّ، فليكن خيرًا.. يا ربّ!

ركبت سيّارة أجرة قبل القطار وبعده، وبعد ساعتين ونصف كانت تسير بساقين مرتعشتين عبر ممرّ المستشفى، تسندها فاطمة، حتّى أشرفت على قاعة الانتظار. طالعتها وجوه واجمة: والدي هيثم وشقيقيه، بالإضافة إلى رنيم. همست في جزع:

– كيف حاله؟

أجابتها العبرات المسترسلة على وجنتي زهور، والبحّة المتحشرجة في صوتها وهي تقول في أسى:

– الدّعاء الدّعاء يا بنيّتي!

تهالكت على مقعد قريب وقد استبدّت بها الرّجفة. اقتربت رنيم واحتضنتها بقوّة، تقاسمها لوعتها وحرقة فؤادها. بعد هنيهة، أفلتتها حين شعرت بتشنّجها. رنت إليها في قلق وهي تقول:

– ياسمين.. أنت بخير؟

لقد راودها ذاك الإحساس حين وصلها صوتها على الهاتف منذ ثلاث ساعات. لم تكن بخير. كان جبينها ينزّ عرقا باردًا، وكانت شفتاها مزرقّتين ومرتجفتين.

هبّت رنيم لتنادي إحدى الممرّضات، وحين عادت، تسمّرت نظراتها على جسد ياسمين المستسلم على المقعد، كأنّها على وشك الإغماء. لكنّ ذلك لم يكن كلّ شيء. كان هناك خيط دقيق من الدّم الأسود يسترسل تحت مقعدها ويرسم بقعة يتّسع قطرها باستمرار. هتفت في هلع:

- إنّها تنزف!

-٢٨-

- هل بقي شيء من حلوى الفراولة؟

فتح هيثم الثّلاجة بحثا عن العلبة التي أحضرها بالأمس. كانت قد اختفت. نظر في شكّ إلى وجه ياسمين المتورّد حرجًا وذنبًا.

- هل التهمتها كلّها؟ القطع الستّ؟

عضّت على شفتيها ثمّ رسمت ابتسامة معتذرة قبل أن تتمتم:

- طار عن جفنيّ النّوم ليلًا، وشعرت بالجوع!

- فازدردت ستّ قطع من الكعك؟

حدّق فيها غير مستوعب، ثمّ وجّه بصره إلى بطنها وهمس:

- بدأ الوحم، سترك يا رب! بنيّ، هنيئا مريئا لك!

ضحكت في استمتاع، ثمّ قالت:

- تناول توست زبدة الفول السّودانيّ.. أنت تحبّها!

قال متذمّرا:

- أحبّها طبعًا.. حين لا يكون هناك حلوى فراولة في الثلاجة!

جلست إلى جواره ترقبه وهو يقضم شطيرته ويرتشف القهوة من حين إلى آخر، متظاهرا بالعبوس. قالت بعد لحظات:

- هل أخبرت خالتي زهور؟

ابتسم على الفور وقد ذهب انزعاجه:

- أريد أن أخبرها وجها لوجه، في استراحة الغداء!

أومأت في رضا، فأردف:

- هل تشعرين بالغثيان؟

ضحكت وقالت:

- ليس بعد!

- تشتهين شيئا إذن؟

ابتسمت ثمّ قالت في حرج:

- حلوى الفراولة، مرّة أخرى؟

*

فتحت ياسمين عينيها مفزوعة. يغمرها إحساس بالوهن. كانت تستلقي في استسلام على سرير المستشفى، تعلوها بطانيّة حراريّة ثقيلة. عند رأسها كانت فاطمة تقف بعينين دامعتين، وهي ترتدي مريلة المستشفى الزّرقاء وكمامة طبيّة.

- حمدًا للّه على سلامتك يا ابنتي!

كانت آخر ذكرى لها قبل أن تهوي في غيبوبة عميقة، الممرّضات وهنّ يهرولن ساحبات سريرها ذي العجلات، وهي مستسلمة لا حول لها ولا قوّة، ثمّ صوت طبيب التّخدير وهو يعلن في أذنها: «مضطرّون لجراحة عاجلة، ستنامين الآن».. قبل أن يطبق قناع التّخدير على وجهها.

همست بخفوت:

- عزّ الدّين؟

- إنّه بخير.. أخذوه إلى المحضنة الصّناعيّة. سترينه قريبا.

أومأت بضعف، والعبرات تتسرّب من مدامعها بلا إرادة منها. اقتربت الممرّضة لتطمئنّ إلى مؤشّراتها الحيويّة، ثمّ قالت:

- لقد انخفضت حرارتك أثناء الولادة القيصريّة، لكنّها آخذة في الصّعود الآن. استرخي قليلا بعد، ثمّ ننقلك إلى غرفتك.

- كيف هو الطّفل؟

- حصل على سبع علامات من عشرة في اختبار «أبغار» (Apgar) لحديثي الولادة.. وهذا يعتبر مرتفعا بالنّسبة إلى مولود سابق لأوانه! أهنّئك.. إنّه طفل بهيّ الطّلعة، وبصحّة جيّدة!

شكرتها ياسمين في تأثّر، ثمّ همست لفاطمة بصوت مرتعش:

- هيثم؟

هزّت فاطمة رأسها في أسف. لا شيء جديد.. قبل أن تنسحب ياسمين تدريجيّا إلى سبات عميق بفعل المخدّر الذي مازالت تحت تأثيره.

*

خرج شهاب من قاعة العمليّات بوجه شاحب وملامح مرهقة. هرولت إليه رنيم، فهزّ رأسه بابتسامة مطمئنة:

- ذهب الخطر.. فلننتظر استيقاظه الآن.

بعد دقائق، خرج الجرّاح الآخر الذي أنهى عمليّته المعقّدة بدوره. لكنّ ملامحه بدت أقلّ ارتياحًا. قال بصوت متعب:

– لقد أخرجنا الرّصاصات كلّها.. وحاولنا إصلاح ما أفسدته من أنسجة وأعصاب. لكنّنا لن نعلم يقينا مدى تأثيرها في وظائف الجسم الحيويّة حتّى يستيقظ!

لم يستفض الجرّاح في شرحه. كانت جراحة طويلة وشاقّة. استخرج خلالها رصاصتين من الصّدر ثقبت إحداهما الرّئة اليسرى ومرّت الثّانية حذاء العمود الفقريّ، واثنتين من البطن مزّقتا أحشاءه، وخامسة في الكتف فتّتت العظم، وسادسة في الذّراع ثقبت المفصل. كان من العسير بعد ذلك أن يُدلي بتصريح دقيق دون أن يبثّ في القلوب المرتجفة مزيدًا من الرّعب.

كان مستوى تفاؤل الجرّاحين متباينا، لكنّ العامل الأساسيّ في المسألة واحد.. أن يفيق المريض من تأثير التّخدير.

***

ساد الصّمت بينهما طويلا في غرفة الفندق. كان عقل رنيم غائبا في دهاليز أفكار متداخلة. لا يمكنها أن تجد تفسيرًا معقولا للحادثة التي تورّط فيها هيثم وعمر معًا.. بينما كان شهاب مهموما بخاطر يؤرقه مذ وقع بصره على وجه مريضه على طاولة العمليّات.

طلبا عشاءهما في الغرفة، وجلسا متقابلين، تعبث الملاعق في الصّحون بلا شهيّة. قال شهاب أخيرًا:

– هل تفكّرين في الحادثة؟

رفعت رنيم عينين قلقتين وحاولت أن تبتسم:

– أنا آسفة حقّا.. لم أتوقّع أن أفسد الإجازة بهذا الشّكل. لقد كان يومًا مرهقًا بالنّسبة إليك أيضا!

ثمّ أضافت متصنّعة المرح:

– أنا وأنت ثنائيّ متكامل، كلانا ينقذ الأرواح.. أنت في قاعة العمليّات وأنا في المحكمة!

استمرّ في صمته لحظات ثمّ قال في ضيق:

– أفهم إذن أنّ قضيّة ما تلوح في الأفق؟

قالت في استياء:

– تبدو مسألة معقّدة للغاية.. لو رأيت كيف كانت سيّارة هيثم! إنّها محاولة اغتيال صريحة.. ومن طرفٍ لا يعرف الخوف ولا يخشى العدالة!

لم ير شهاب السيّارة، لكنّه رأى حال المصابين. يعرف يقينا أنّ الحقائق لم تكشف بعد. وأنّ ما خفي كان أعظم. قال أخيرًا في رجاء:
– هل يمكن أن أطلب منك شيئا؟

رنت إليه في اهتمام، فأضاف:

– لا تترافعي في هذه القضيّة!

حدّقت فيه دهشة واستغرابًا. أيّ طلب غريب هذا؟ كيف يمكن للمحامي أن يتنصّل من مسؤوليّاته؟ لكنّها لم ترغب في الجدال. قالت في لامبالاة وهي تعود إلى الأكل:

– لماذا تستبق الأحداث؟ لا أحد يعلم إن كانت هناك قضيّة...

ثمّ أردفت مغيّرة الموضوع:

- هل رأيت هيثم؟ كيف بدا وضعه؟

أدرك شهاب تهرّبها، لكنّه لم يلحّ.

- إصاباته كانت مباشرة.. لقد نجا من موت محقّق بأعجوبة، غير أنّه من العسير التنبّؤ بالنّتائج.. أخشى أنّه سيعاني من خسائر جسيمة.. إذا استفاق!

قالت في قلق:

- إذا استفاق؟ هل تشكّ في حصول ذلك؟

- أخشى أنّ غيبوبته قد تطول.. وكلّما طالت، تقلّصت فرص النّجاة. وإذا حدث ونجا، سيعاني من قصور في الوظائف التنفّسيّة، وربّما من شلل نصفيّ...

- يا إلهي! هيثم مريض ربو أساسًا!

- سيكون ذلك أسوأ. لن يقدر على القيام بأيّ مجهود بدنيّ ذي بال.. وستكون الحركة عسيرة. ربّما يقضي بقيّة حياته على كرسيّ متحرّك.

*

عبرت رنيم الممرّ المؤدّي إلى غرفة العناية المركّزة، ثمّ توقّفت عند مكتب الاستقبال. كانت رانيا وسكينة قد سبقتاها إلى غرفة ياسمين، بينما أخذت على عاتقها تفقّد أحوال المرضى.

- عمر الرّشيدي.. هل استيقظ؟

هزّت الممرضة رأسها نافية.

- هيثم الأندلسي؟

تكرّرت الحركة نفسها. زفرت رنيم في ضيق وقالت وهي تخرج بطاقتها المهنيّة:

- اتّصلي بي رجاءً ما أن يستيقظ أحدهما.

ثمّ سارت حتّى غرفة الحضانة. وقفت تراقب الرضّع المعزولين في أسرّة زجاجيّة لبرهة، ثمّ سألت:

- طفل ياسمين عبد القادر؟

لم يكن أحد قد اهتمّ بتسجيل الطّفل بعد، لذلك يحمل اسم والدته. أشارت الممرّضة إلى سرير بعينه، فتطاولت رنيم لتحدّق في الرّضيع الضئيل الذي يستغرق في نوم عميق، وقد امتدّ إلى أنفه أنبوب التنفّس وإلى حلقه آخر للتّغذية. ابتسمت في عطف وهي ترقب أنامله الرّقيقة وأطرافه المنكمشة، ثمّ تنهّدت:

- لقد جئت إلى العالم في وقت حرج أيّها الصّغير!

ثمّ ابتعدت تحثّ الخطى إلى غرفة ياسمين.

كانت البنات مجتمعات هناك، يسرّين عنها ويخفّفن عن أنفسهنّ الأجواء الخانقة. هربت زهور وفاطمة إلى البيت، تدفنان مخاوفهما في المطبخ وتشغلان قلبيهما قبل أيديهما. بل لعلّ فاطمة كانت تعمل وتتحدّث، وزهور ترافقها رغم غرقها في الصّمت الحزين. تقول فاطمة وهي تحرّك القدر على النّار:

– سيكون جائعا حين يفيق.. سيحتاج أن يقتات جيّدا ليشدّ أوده. إنّه رصاص يا أختي، رصاص! يشقّ العظم واللّحم وينفذ منهما. لكنّ الطبّ الحديث يصنع المعجزات.. لم يقل الجرّاح ما يستدعي القلق.

لكنّ زهور ساهمة لا تكاد تصغي، قلبها يتمزّق جزعا على بكرها الذي قُصف عمره برصاص غادر. وهل كان ما يحصل ليخطر على بالها مهما استبدّت بها مخاوف الأمومة آنفًا؟ إنّ أقصى همومها كان حادثًا على الطّريق! تستمرّ تذكّره وتوصيه كلّما زارها في موعد غدائه أيّام الاثنين والثّلاثاء من كلّ أسبوع:

– سر على مهل وانتبه إلى الطّريق!

لكنّ الخوف لا يُجدي حين تضرب صاعقة مجنونة لا يمكن التّنبؤ أين ستنزل!

في الأثناء، تحاول رانيا أن تُضفي قليلا من المرح على الجلسة في غرفة ياسمين. هتفت في حماس:

– عزّ الدّين رقيق جدّا وظريف! متى يُخرجونه من المحضنة؟

همست ياسمين بصوت مبحوح:

– ربّما يمضي أسبوعين في المحضنة.. ريثما تنضج رئتاه.

هزّت رانيا رأسها في أسف، فقالت سكينة:

- أحضرت لك الكبّة التي تحبّينها.

شكرتها ياسمين بما قدرت من حرارة، ثمّ سيطر الصّمت من جديد. كانت تتمنّى أن تنفرد بحزنها، لكنّهنّ يأبين أن يتركنها لأنياب الكآبة تفتك بروحها.

زوجها وابنها، كلّ واحد منهما في غرفة من المشفى، وهي بثالثة. آلام الجراحة لا تسعفها لتلازم سرير أحدهما أو كليهما، تنتظر أن تتطلّع عيناه في عينيها أو يزيّن ثغره بسمة موجّهة إليها. مضطرّة إلى الرّقاد، حتّى انتهاء ساعات النّهار الأوّل بعد القيصريّة. بعد ذلك، سيكون بوسعها ترك السّرير وزيارة الأحبّة.

دخلت عليهنّ زهور وفاطمة محمّلتين بما لذّ وطاب، بينما توجّه عبد الحميد ووائل لتسجيل عزّ الدّين في دائرة الأحوال المدنيّة.

كانت فاطمة تخرج ما في قفّتها من مأكولات مغذّية للأمّ الجديدة وترصفها على المنضدة، حين ارتفع رنين هاتف رنيم. اعتذرت لتتلقّى المكالمة خارج الغرفة.

جاءها صوت الممرّضة التي غادرتها منذ نصف ساعة يقول:

- لقد استيقظ المريض!

*

ركضت رنيم في الممرّات، من قسم الولادة حتّى قسم العناية المركّزة. حين وصلت، كان الطّاقم الطبيّ يدفع سريرًا إلى الخارج. قالت الممرّضة تطمئنها:

– لقد عاينه الطّبيب منذ حين وسمح بنقله إلى غرفته!

مشت رنيم على أثرهم، وتحرّك برفقتها المحقّق الذي لقيته بالأمس. سألته وهما يسيران جنبًا إلى جنب:

– هل من جديد سيّدي المحقّق؟

– هناك نتائج أوّليّة.. سيعلن عنها رئيس شرطة «إفري» في ندوة صحفيّة بعد قليل...

– آه!

وقفا يترقّبان خارج الغرفة، ريثما تُهيّئ الممرّضات الغرفة للمريض، وقد بدا التوتّر على رنيم. حين خرجن، استأذنت لتدلف أوّلا.

كان عمر يستلقي على السّرير مغمض العينين. اقتربت لتهمس باسمه برفق، فاستجاب لندائها ورفع جفنيه المثقلين. تنهّدت في ارتياح:

– حمدًا لله على سلامتك!

قرأت الدّهشة في مقلتيه. لم يكن وجهها ضمن الوجوه التي قد يرجّح وجودها حوله حال استيقاظه. شرحت باختصار اتّصال المشفى بجورج وتفويضه المسؤوليّة إليها. جاءها صوته متحشرجا وهو يسأل في لهفة:

– هيثم؟

هزّت رأسها في ضيق:

- لم يستيقظ بعد.

عاد إلى إغماض عينيه برهة، كانت تسمع خلالها تنفّسه المضطرب. ثمّ التفت إليها فجأة وهتف كمن تذكّر شيئا:

- ياسمين؟

- لقد عرفت.. ووضعت مولودها. كلاهما بخير.

- حمدًا لله.

قدّمت نشرة موجزة بآخر الأنباء. لكنّها تحتاج منه إجابات أيضا. توضيحات بشأن الحادثة. غير أنّها تتريّث. لم يكن يبدو في كامل لياقته. قالت بعد هنيهة:

- المحقّق بالخارج، يودّ استجوابك بشأن الحادثة. هل هناك ما تودّ إخباري به قبل ذلك؟

- هاتفي!

- إنّه مع الشّرطة.

- إذن.. هل يمكنك زيارة هذا العنوان (...). تسكن هناك فتاة اسمها آية، ووالدها محمّد الغزّي.. أعلميهما رجاءً بما حصل.

أومأت في تفهّم، ثمّ خرجت تستدعي المحقّق. وقف الرّجل الخمسينيّ قبالة السّرير، وتناول دفتره ليسجّل الإجابات بشكل قديم الطّراز. قال بلهجة ودودة:

- حمدًا لله على سلامتك دكتور عمر.. أخبرني ما الذي تذكره بشأن الحادثة؟

سرد عمر على مسمعه أحداث يوم أمس الدّامية، بجمل متقطّعة، يلتقط خلالها أنفاسه من حين إلى آخر.

- هل تشكّ في أحد؟

- لا.

- هل هناك في نشاط شركة «ياسمين الأندلس» ما يستدعي عداوة جهات بعينها؟

- لا.

- أحتاج قائمة كاملة بموظّفي الشّركة.

- هناك ثلاثة في المقرّ الرّئيسي.. غيري أنا وهيثم. المهندسون أليكس وأدريان وداميان.. بالإضافة إلى عشرة عمّال في المستودع.. لا أحفظ أسماءهم!

- هل يمكن أن أحصل على قائمة بالأسماء قبل المساء؟

- بالتّأكيد.. إذا اتّصلت بالمهندس أليكس.. يمكنه أن يوفّرها.

هزّ المحقّق رأسه، ثمّ أردف وهو يبرز مجموعة من الصّور:

- هل يمكنك التعرّف على الأشخاص في هذه الصّور؟

رفعها واحدة إثر الأخرى أمام ناظري عمر. حدّق فيها بما أمكنه من تركيز واهتمام، لكنّ الملامح التي تمرّ أمامه لم تكن تعني له شيئا. توقّف فجأة أمام صورة امرأة شقراء. هتف:

- أذكرها.. إنّها الصّحفيّة التي أجرت لقاءً معنا بشأن منتجات الشّركة!

هزّ المحقّق رأسه في اهتمام، فعاجلته رنيم:

- هل تشكّون في طرف ما؟

- نشكّ في وجود صلة بين مجموعة من الأجانب، دخلوا الاتّحاد الأوروبيّ من منافذ جويّة مختلفة.. وكان لهم حضور في الضّاحية الجنوبيّة خلال الشّهور الماضية.

رافقت رنيم المحقّق خارج الغرفة. كانت رقعة الشّكوك داخلها تزداد اتّساعًا، لكنّ المحقّق بدا متكتّما. قال بابتسامة وهو يشير إلى الشّاشة العملاقة في بهو المستشفى:

- النّدوة الصّحفيّة تبدأ الآن!

انتحت رنيم ركنا هادئا، وشغّلت البثّ المباشر على هاتفها. أصغت في اهتمام إلى كلمات رئيس شرطة باريس:

- المعلومات التي بين أيدينا تشير بوضوح إلى تدخّل مسلّح من المخابرات الإسرائيليّة على التّراب الفرنسيّ.. حيث استهدفت فرقة محترفة بالأمس اثنين من المدنيّين.. الفرنسيّ هيثم الأندلسي والمغربي عمر الرّشيدي. ونحن لن نقف مكتوفي الأيدي تجاه

الاعتداء السّافر على السّيادة الفرنسيّة! لقد توجّهنا صباح اليوم بطلب توضيح رسميّ.. وسنفعل اللاّزم بناءً على المعطيات التي ستردنا.

شحبت ملامح رنيم فجأة. غادرت مقعدها على الفور، وركضت باتّجاه غرفة ياسمين. توقّفت وهي تلهث حين أبصرت ميساء تغادر الغرفة قاصدة غرفة التّمريض. جذبتها من ذراعها وانتحت بها جانبا. قالت في لهجة حازمة:

– هيثم في حاجة إلى محامٍ.. ستكون هناك محاكمة.. لا أعلم ماذا حصل بالضّبط، لكنّهم لن ينتظروا استيقاظه.. اتّصلي بجورج، إنّه محامٍ بارع!

قالت ذلك وهي تدسّ البطاقة المهنيّة لجورج في كفّها. همهمت ميساء في فزع:
– ألا يمكنك أن تفعلي؟

– سأمثّل عمر. يحتاجان إلى دفاع منفصل لكلّ منهما.

– أنت تثيرين ذعري.. ما الذي يجري؟

– سنعلم قريبا.. حين يُعلنون لائحة الاتّهام!

أضافت محذّرة:

– لا تخبري ياسمين بعد.. حتّى تتّضح الرؤية. اجعلي والدك يتّصل بجورج.. سيكون هذا أفضل.

تركتها في حيرتها ورجعت إلى غرفة عمر. فتحت الباب في انفعال، ووقفت أمام سريره والحمم تتطاير من عينيها:

– المخابرات الإسرائيليّة! ماذا يعني هذا؟ ما الذي تورطّتما فيه؟

انفرجت شفتا عمر وهمّ بقول شيء ما، فقاطعته بإشارة من كفّها وهتفت بحزم:

– لا أريد أن أعرف!

استمرّت تذرع الغرفة جيئة وذهابا في عصبيّة، ثمّ قالت:

– ستتواصل الشّرطة الفرنسيّة مع الموساد، وسيتحصّلون على الأدلّة التي أدّت بهم إلى ترتيب عمليّة الاغتيال.. وهي أدلّة دامغة بالتّأكيد! ثمّ ستوجّه إليكما لائحة اتّهام مرعبة.. معاداة السّاميّة أو تهديد الأمن القوميّ، أو أيّ شيء رهيب آخر.. من يدري! لكنّ المصيبة هي أنّني أشعر أنّك لن تكون بريئا هذه المرّة!

حدّقت في ملامحه الشّاحبة ونظراته الزّائغة. لم يحاول الإنكار أو الدّفاع عن نفسه.. كأنّه يقرّ في استسلام بصدق حدسها.

أخفت وجهها بين كفّيها تخنق ذعرها وجزعها. كيف تخبر ياسمين، أنّ زوجها إن هو نجا من الموت، فإنّه سيواجه حكما بالسّجن لربع قرن أو أكثر! كيف تحمل إليها فاجعة الانفصال المحتّم للولد الرّضيع عن أبيه، سواء غيّبه الموت أو السّجن؟

فرّت من المستشفى. اختارت تأجيل المواجهة مع هواجسها. كانت تعبر بهو الفندق حين رنّ هاتفها معلنا اتّصالا من جورج.

– جاءني اتّصال من شخص ادّعى أنّه من طرفك.

– عبد الحميد الأندلسي؟

- نعم، هو بعينه.. ما حكايته؟ لم تكن كلماته واضحة.

- ابنه كان برفقة عمر الرّشيدي حين تعرّضا إلى إطلاق نار.. من طرف عملاء المخابرات الإسرائيليّة.

- يا إلهي!

- نعم، أعرف.. ستكون قضيّة ضخمة ومرعبة. هل أنت مستعدّ لمواجهة كابوس أسود مرّة أخرى؟

أطلق جورج ضحكة استمتاع وهو يقول:

- تعلمين أنّ هذه القضايا تثيرني، ولا تخيفني أبدًا.

- شكرا لك جورج. هيثم الأندلسيّ، إنّه زوج صديقة عزيزة عليّ.

- فهمت. سنفعل ما بوسعنا.

أنهت الاتّصال ثمّ ركبت المصعد. دلفت إلى الغرفة وهي تهتف محاولة إضفاء المرح على صوتها:

- عزيزي.. لقد عدت!

فوجئت بشهاب، يجلس في الصّالة وقد ارتدى ثيابه كاملة، وإلى جواره حقيبة سفره. حدّقت فيه غير مستوعبة:

- ما هذا؟ ما الذي تفعله؟

نظر إليها في حزن، وقال:

- لقد تابعت الأخبار منذ الصّباح. ستكون هناك قضيّة أليس كذلك؟

رفعت رأسها إلى السّقف، ثمّ أطلقت تنهيدة حارّة، وتقدّمت لتجلس إلى جواره. قالت في رفق:

- نعم بالفعل. أتوقّع لائحة اتّهام مفجعة. لن تكون قضيّة هيّنة!

- وأنت ستمثّلين عمر الرّشيدي؟

انتبهت إلى الحدّة في صوته. لقد حرصت على ألّا تأتي على ذكره أبدًا في حضوره. لكنّها تدرك بنظرة واحدة أنّه «يعرف كلّ شيء» كما أعلن منذ سنوات على الهاتف، حين أقنعها بالخروج من عزلتها. لا تدري كيف أسند اسمًا لصاحب القصّة الغامضة التي لم تخبر بها صراحة. ربّما بعد اللّقاء التّلفزيّ؟ كلّ ذلك لم يعد مهمّا. إنّه يعرف، ويعبّر عن غيرته بصراحة. قالت بهدوء:

- أنت جرّاح، وتعرف أنّ شرف المهنة يقتضي ألّا تفرّ من ساحة المعركة أبدًا.. خاصّة حين يكون المريض في حاجتك! وهذا ينطبق على مهنة المحاماة أيضا. لا يمكنني التخلّي عن موكّل يحتاجني!

- فليمسك جورج القضيّة! ألم يفعل من قبل في غيابك؟

- جورج سيمثّل هيثم.. من المحتمل أن يكون هناك تضارب مصالح. لذلك يحتاجان دفاعًا منفصلا.

قال في جفاف:

- إذن لن تتراجعي عن الدّفاع عنه؟ ألا يمكنكما تبادل المواقع أنت وجورج؟

هتفت في رجاء:

- شهاب.. أرجوك. لا أعلم لماذا تحاول إملاء رغباتك في ما يخصّ عملي! هل أتحكّم أنا في قائمة مرضاك؟ من يستحقّ أن تجري جراحة عليه أم لا؟

قال في سخرية:

- أنت تفعلين ذلك بالفعل.. تجعلينني أجري الجراحة على من تريدين!

امتقع وجهها وتصلّبت ملامحها. قالت في أسى:

- لقد أنقذتَ روحًا، قمتَ بعمل إنسانيّ.. هل أخطأتُ في استدعائك وطلب معونتك؟ هل كان علينا أنا وأنت أن نتركه يموت؟

أطرق شهاب وزفر في إعياء:

- لم أكن أقصد ذلك. لقد تجاوزتُ الحدّ.. أعتذر.

ثمّ أردف بلهجة حاسمة:

- لكنّ هذا لن يغيّر موقفي. ليست مسألة حياة أو موت الآن. إن أصررت على تمثيل عمر الرّشيدي مرّة أخرى.. فلن تريني مجدّدا!

وضع كفّيه في جيوبه في حركة صارمة، وأشاح بوجهه عنها. ترقّب ردّها لثوانٍ، ريثما قالت رنيم بصوت منكسر:

- كم أنت قاسٍ.. صدّقني الأمر لا يستحقّ!

- إنّه يستحقّ، في نظري.

ثمّ سار في اتّجاه الباب، ساحبًا حقيبة سفره بخطوات مصمّمة، وتوارى خلف الباب المغلق.
انهارت رنيم على الأريكة، وهي لا تكاد تستوعب.. أنّ أسوأ مخاوفها، قد غدا واقعًا.

-٢٩-

«لا أخبار، إذن أخبار جيّدة».

في كلّ مرّة اتّصلت بها ياسمين بوالدها، تسأل عن أخباره وأخويها، كان يكرّر المثل الفرنسيّ بتلك اللّامبالاة المعهودة لديه.

لم تكن العلاقة التي تجمع بينهما حميميّة إلى درجة كبيرة، ولا تشبه العلاقات الكلاسيكيّة التي تصل الآباء بأبنائهم. لم يكن له دور يُذكر في نشأتها، لكنّها ما تفتأ تذكّره بواجبه تجاهها.. هكذا يرى برّها.

غالبا ما تكون الاتّصالات من طرفها، ولم تكن تتجاوز الدّقيقتين في أحسن الأحوال. سؤال روتينيّ عن الصّحة والعمل والأخبار.. لكنّه يعترف أنّ اتّصالاتها -ولو كانت من قبيل الواجب- فإنّها تسرّه، بل تشعره بالأهمّيّة.. فقد رُزق من بعدها بشابّين، مازال يطاردهما باتّصالاته حتّى لا يُسقطاه من حياتهما!

يقول بنبرته الفلسفيّة العميقة:

«الخبر السيّء يسافر بسرعة. إذا لم يصلك عنّا نبأ، فهذا يعني أنّنا جميعا على خير حال».

خلال يومين، كان خبر الحادثة قد انتشر في الآفاق، حتّى وصل إلى كلّ المعارف والأقارب. في الصّباح، تسارعت خطوات الزّائرين في ممرّات المستشفى. وصل سامي كلود من ليون، بعد أن اتّصل به عبد الحميد لينبّئه بولادة ابنته وإصابة زوجها.

قبل ذلك، كان ريّان قد اتّصل في صدمة، يعلمه أنّ خبرًا غريبا يُعرض في نشرة المساء.

«رجل يحمل اسم زوج ياسمين.. أصيب بطلق ناريّ على يد المخابرات!».

بدا ذلك أشبه بمزحة ثقيلة وسخيفة. تساءل في سخرية، لماذا يفكّر ريّان في تدبير مقلب له من هذا النّوع؟ إنّ ذلك ليس مسليّا حتّى! ومع ذلك، فقد كلّف نفسه مشقّة التّقليب في القنوات التّلفزيّة، ليقف على حقيقة الأمر. لم يستمرّ بحثه طويلا، فقد كان الخبر العاجل يلقى تغطية كثيفة من مختلف المحطّات. جلست ناتاشا إلى جواره وهتفت:

– ما هذا؟

أجابها بشرود:

– حادثة إطلاق نار على مدنيّين في باريس.

– إطلاق نار من طرف واحد؟ هذا مملّ.. يجب أن تشاهد أفلام المافيا الرّوسيّة.. إطلاق النّار يكون من كلّ اتّجاه هكذا...

ثمّ أخذت تقلّد صوت الطّلقات وتشير بيديها مثل الأطفال وتضحك.

كان يكرّر في كلّ مناسبة، أنّ ما يشدّه إليها هي روح الدّعابة وخفّة الظلّ لديها التي تُحسّن مزاجه، لذلك تحرص على أن تكون نكتتها جاهزة في كلّ موقف، حتّى لا يملّها. وكانت قادرة على جعله يضحك بلا توقّف دون جهد، حتّى حين تتكلّم بتلقائيّة بلكنتها الرّوسيّة المعوجّة.

لكنّ سامي لم يبد متجاوبًا ولا مهتمًّا بمزحتها ذلك اليوم. رمقته في استغراب حين تركها ووقف مستأذنا ليردّ على اتّصال صهره، وقد غلب على مزاجه العبوس.

قاد سيّارته وحيدًا هذه المرّة، فلم يكن الوضع يحتمل سخافات ناتاشا وملاحظاتها الخرقاء. هكذا، انقلبت دعاباتها المسليّة عادة إلى عبء لا يسعه احتماله في ذلك الظّرف. جاء محمّلا بباقة ورود ضخمة للمصاب –فهو لا ينسى الواجب حتّى في أحلك الظّروف– وطقم ثيابٍ للوليد، وعلبة حلويّات فاخرة للأمّ.

عرّج على غرفة العناية المركّزة أوّلا، ليلقي نظرة على هيثم الذي لا يُبدي حراكا بعد. حدّق فيه في أسف، ثمّ أخذ يواسي عبد الحميد:

– الواحد منّا يظنّ أنّه قد حقّق كلّ ما يتمنّى، حين يكبر أولاده، يتزوّجون ويجدون وظائف مناسبة.. لكنّ الحياة دائما تخفي ما لا يخطر على قلب أحد منّا! من كان يعتقد أن هيثم الشابّ الرّصين العاقل، قد يتورّط في حادثة من هذا النّوع؟

أصغى إليه عبد الحميد في صمت وعجز. لم يكن يستوعب بعد حقيقة الأمر. لقد تحدّث بالأمس إلى المحامي، فأفزعته الاحتمالات المرعبة. هكذا.. فجأة، يتحوّل ولده البارّ والمثاليّ إلى مطلوب للعدالة!

وصلا عند غرفة ياسمين، فطرق سامي الباب، ثمّ دلف وقد علت ملامحه الكآبة. كانت الهدايا كلّها من نصيبها في نهاية الأمر، فلا هيثم ولا عزّ الدّين يستقبلان الزّوّار!

وقف الرّجلان في صمت.. بينما تتحرّك زهور وفاطمة حول سرير النّفساء، تحضّران طعامها وتساعدانها على الأكل، ثم ينزوي كلّ واحدٍ من أربعتهم في ركنه على أحد المقاعد، تعلو ملامحه علامات وجوم وسهوم.

يقطع سامي الصّمت من حين إلى آخر، لينطق بحكمة عميقة جادت بها قريحته الفلسفيّة الفذّة:

– لا تستلمي للكآبة.. هل تعلمين أنّ الرّضيع يشعر بوالدته ويتسرّب إليه حزنها؟

مطّت فاطمة شفتيها وهي تقول في تهكّم:

– كيف عرفت؟ أم تراك قد جرّبت في وقت ما الاهتمام برضيع؟

تبادلا نظرات ناريّة محمّلة برسائل اللّوم من الجانبين. ثمّ قال سامي في غيظ:

– لقد قرأت ذلك في مجلّة...

أزاحت ياسمين الغطاء عنها ونهضت مغادرة السّرير. قالت وقد أثقل الجوّ الخانق على صدرها:

– سأذهب إلى عزّ الدّين.

لم تنعم بفرصة إرضاعه طبيعيّا، نظرًا لضعف بنيته وعدم قدرته على التقام الثّدي. لكنّها تحرص على استخدام مضخّة كهربائيّة لاستخراج حليبها، كلّ ساعتين، فيتغذّى عليه

رضيعها بمحقنة تصبّ في معدته مباشرة. كانت مهمّة شاقّة، تضيف إلى حملها النّفسيّ والجسديّ عناءً من نوع آخر. ومع ذلك، فإنّها تبدو متماسكة أكثر منهم جميعًا.

سارت بهدوء عبر ممرّات المستشفى، حتّى الحضانة، ومشى على إثرها الكهول الأربعة، مثل حاشية كئيبة. كانت تتمنّى أن تصرفهم بأيّ طريقة، حتّى تنفرد بطفلها.. وتخلو بنفسها، فتترك العنان لدموعها. لكنّها مجبرة على الجَلَد في حضورهم، مرغمة على ابتلاع غصّتها ووضع قناع الثّبات.

حين وصلت إلى الحضانة وأبصرت صغيرها، انفرجت أساريرها على الفور. كان هناك شيء آسر في ذلك الكيان الضّئيل والهزيل، يجعل روحها تشعّ محبّة وهيامًا. ذلك الكائن ينتمي إليها، وهي تنتمي إليه. لقد كان جزءًا منها حتّى وقت قريب، ولعلّه كان ليستمرّ في جوفها أسابيع بعد، لولا الفاجعة. لذلك ينفطر فؤادها لذاك الانفصال القسريّ الذي لم تتحضّر له كما ينبغي.

دخلت بمفردها إلى غرفة الحضانة، بينما تابعتها أزواج عيون أربع من وراء الزّجاج. استقبلتها الممرّضة بابتسامة، وساعدتها على رفع عزّ الدّين بين ذراعيها. كانت تحمل زجاجة حليبها في وعاء حافظ، استلمتها منها الممرّضة ودوّنت عليها اسم الرّضيع، تاريخ اليوم والتّوقيت، ثمّ ضمّتها إلى رفيقاتها في الثّلاجة.

جلست ياسمين على المقعد المهيّأ لاستقبال الأمّهات الزّائرات. فتحت أزرار قميصها بعيدًا عن الأعين، ثمّ تركت الطّفل ينزلق على جلدها، يتكوّر على نفسه في وضع الجنين ويلتصق بها ويستكين.. تشعر بدفئه وهو يلامس بشرتها ويُلصق وجنته الملساء الغضّة بها، وأنامله الرّقيقة تتسّلل لتخمشها فيما يشبه الدّغدغة.

كان بوسعها أن تنسى العالم وكآبته، وكلّ ما يترصّدها من آلام خلف الباب المغلق، وتستغرق في لحظات وداعة هشّة وثمينة، تدفع أيّ ثمن لتستمرّ إلى الأبد.

***

وقفت رنيم أمام باب الشّقّة الواقعة في الطّابق الأرضيّ وقرعت الجرس. مرّت لحظات طويلة قبل أن تُشرع الدّفّة وتظهر شابّة في منتصف العشرينيّات، ترتدي جلبابا بيتيّا وحجابا عريضا. كانت جميلة، بيضاء البشرة وعيناها خضراوان. تأمّلتها رنيم في اهتمام، وفي ذهنها راحت تعقد مقارنات ومفاضلات معقّدة وبلا فائدة.

- آنسة آية؟ أنا رنيم شاكر.

بدت في عيني آية لمعة مفاجئة، كأنّها تعرّفت إليها. هتفت على الفور:

- أهلا بك، أستاذة رنيم.

أوسعت لها مدخلا وهي تضيف:

- تفضّلي أرجوك. فلنتحدث بالدّاخل.

أدركت رنيم أنّها تعرّفت إليها من خلال حلقات برنامج «الحقيقة الكاملة». بات عليها أن تتعايش مع واقع شهرتها، وكونها وجها مألوفا يعرفه القاصي والدّاني. تبعت مضيّفتها على مضض إلى مجلس داخليّ. كانت تستعجل إيصال الرّسالة والرّحيل، فلا وقت لديها تضيّعه. لكنّها استجابت إلى الدّعوة وقد تحرّك داخلها فضول تجاه فتاة عمر الجديدة.

حين جلستا متجاورتين على الأرائك المنخفضة، أنشأت آية تقول في قلق وهي تفرك طرف ثوبها:

- هل من جديد عن عمر؟ لقد تابعت نشرات الأخبار.. ما حصل لا يُصدّق. أنت تعرفين كيف هو الآن؟

أومأت رنيم بابتسامة مطمئنة، ثمّ قالت:

– لقد كانت الجراحة ناجحة.. وحالته مستقرّة الآن.

رفعت آية كفّيها إلى وجهها وهتفت في تأثر وهي تغالب دموعها:

– حمدًا لله! كم أنت كريم يا ربّ!

حبست رنيم ضحكة ساخرة أوشكت أن تفارق حلقها، وهي ترقبها بنظرة امتعاض. لم تكن لتصدّق أنّ صنف عمر المفضّل سيكون ليّنا ورقيقا إلى درجة تثير الغثيان. ما الذي جذبه في كتلة النّعومة تلك؟ قالت وهي تحاول الابتسام:

– هذا رقم عنوان المستشفى ورقم غرفته.. إن رغبت في زيارته.

أخذت آية منها القصاصة في امتنان. ثمّ همست في اعتذار:

– لقد كلّفت نفسك عناءً كبيرًا.. لا شكّ أنّك مشغولة!

– لا بأس.. لقد طلب منّي الدّكتور عمر إسداء معروف له، وهذا أقلّ ما نفعله في هذه الظّروف الصّعبة.

– هل تشربين الشّاي؟

اعتذرت رنيم بلباقة، ثمّ انصرفت. وهي تمشي في اتّجاه سيّارتها التي ركنتها عند المفترق، لازمها إحساس غريب بالضيق. فاقت آية توقّعاتها، من حيث درجة الجمال والرّقّة، وأثارت حفيظتها بتعبيرها السّافر عن مشاعرها.

طردت ترسّبات الكدر التي رانت على قلبها، وضغطت بعنف على مزوّد السّرعة لتنطلق عبر الشّوارع. إنّها لا تغار! لا يمكنها ذلك. لعلّه ميلها الفطريّ لتقييم معدن البشر الذين تقابلهم، وهي لا تشعر بالارتياح تجاه الفتاة.

قصدت الفندق أوّلا. لم تترك الغرفة بعد مغادرة شهاب. حسبت أنّه قد يغيّر رأيه ويرجع. حاولت الاتّصال بهاتفه، لكنّه تجاهلها، وظلّت محاولاتها بلا ردّ. انتظرت حتّى مساء اليوم التّالي. لكنّه لم يظهر.
انهمكت في جمع حاجياتها وقد تملّكها الاستياء. هل يكون غيّر موعد رحلته وسافر بالفعل؟ لم تكن على موعد مع «شهر عسل» جديد هذه المرّة. تحوّلت الإجازة إلى كابوس حقيقيّ. كان بوسعها التّنازل والاستجابة لطلبه لتحفظ الودّ بينهما، لكنّ العناد طبع متأصّل فيها. كان في كلماته شبح اتّهام حزّ في خاطرها.. فتصرّفت باندفاع! هل تثبت تلاشي تعلّقها السّابق بعمر هكذا أم تزيد الطّين بلّة؟ لم تشأ أن تكون في موضع دفاع، فتمسّكت بحقّها في استلام القضايا التي تراها مناسبة. تدرك الآن مدى غباء خطّتها، لكنّ وقت التّراجع قد مضى. لا يمكنها أن تستسلم لرغبة شهاب الآن، فتثبت صحّة ظنونه ضمنيّا!

دخلت الشقة وهي تسحب حقيبة سفرها. رمقتها رانيا وسكينة في دهشة لا تخفيانها.

- ما الذي جاء بك؟

بادرتها شقيقتها التي يروقها استئثارها بالغرفة في غيابها. لوت شفتها السّفلى في امتعاض، وسارت حتّى باب الغرفة. قالت مغالبة ضيقها:

- رحل شهاب.

- هل تشاجرتما؟

تجاهلت أسئلة رانيا الفضوليّة واللّجوجة، ودخلت لتغلق عليها الباب. لحقتها رانيا. وقفت على مقربة من سريرها وهمست:

- بسبب عمر؟

رفعت رنيم رأسها مبهوتة. هل كانت حياتها كتابًا مفتوحًا إلى تلك الدّرجة بالنّسبة إلى شقيقتها؟ أم أنّ أمرها مفضوح للجميع، منذ البداية؟ قالت متمالكة نفسها:

- لماذا تقولين هذا؟

هزّت رانيا كتفيها ثمّ قالت:

- لقد جعلته يجري جراحته، ثمّ انشغلت في المستشفى طوال الوقت.. ألا ترين أنّك قد أهملته؟

كانت الحقيقة صفعة قاسية خاصّة وهي تتلقّاها من شفتي رانيا. زفرت في إعياء وقالت:

- أحتاج إلى بعض الوحدة، رجاءً.

حين غادرت رانيا، حاولت الاتّصال به مرّة أخرى. لكنّ هاتفه كان مغلقا. لبثت تتأمّل الشّاشة المطفأة في شرود. هل تكون قد دقّت المسامير في نعش زواجها بنفسها، دون أن تدري؟

***

سارت رنيم برفقة جورج في ممرّ المستشفى في سكون. كانت شاردة منذ غادرا المكتب، تردّ بعبارات مختصرة، وتلتزم الصّمت معظم الوقت. سألها جورج وقد أهمّه أمرها:

- هل أنت متعبة؟ تبدين شاحبة اليوم!

ابتسمت لتبدّد شكوكه وقالت بثقة:

- لا تخف عليّ.. أنا بخير.

طوال الطّريق، كانت كلمات شهاب ترنّ في أذنيها في إلحاح. فتتعالى بداخلها أصوات متداخلة.. تارة يعلو صوت كرامتها، يقنعها بأنّها تفعل الصّواب. كان عليها أن تفصل حياتها الشّخصيّة عن المهنيّة، وزوجها لا يحقّ له نقاش من تنوب وعمّن تدافع! ثمّ تهدأ ثائرتها حين يتسلّل همس العقل.. عليها ألّا تتسرّع فتخسر زوجها، من أجل قضيّة مثل كلّ القضايا!

لكنّها تنتبه على صوت الحقيقة السّاطعة: إنّها ليست قضيّة مثل كلّ القضايا!

دلفا إلى الغرفة وجلسا على مقعدين متجاورين، قبالة عمر، ثمّ أعلنت رنيم بداية الجلسة:

- فلنحاول أن نربح بعض الوقت.. قريبا ستصبح الاتّهامات واقعًا.. لذلك نريد أن نسبقهم بخطوة، ونحضّر خطّتنا الدّفاعيّة.

أومأ جورج وهو يقول:

- سيكون دفاعنا مشتركًا ما أمكن ذلك، لكنّني أخشى أن نضطرّ إلى الانفصال في حال فرّقوا صفوفنا، بتقديمهم لمتّهم رئيسيّ وآخر ثانويّ.

أمّنت رنيم على قوله، وهي تستطرد:

– حتّى الآن لا نعرف فحوى الملفّ الذي بحوزتهم.. برأيك، ما الذي يعرفونه وقد يستخدمونه ضدّكما؟

تمهّل عمر قليلا، ثمّ أنشأ يقول:

– لقد زارتنا تلك السيّدة الشّقراء في مكتب الشّركة.. وأجرت حوارات صحفيّة مع الجميع.. هيثم وأنا، والمهندسين.

صمت لبرهة، ثمّ أضاف:

– لا شكّ أنّ تحرّكاتي الجويّة والبرّية معلومة لديهم، فالأختام التي على جواز السّفر واضحة.. أمضيت تسعة أشهر في سوريا، وأسبوعين في غزّة.

تغيّرت ملامح رنيم وهي تسأله:

– هل لهذا علاقة بنشاط الشّركة؟

– كان ذلك قبل بدء الشّراكة بيني وبين هيثم.. لكنّها البداية لفكرة المشروع، حيث حصلت على تصميمات طائرة التجسّس من المقاومة الفلسطينيّة، ثمّ عملت على تعديلها وتطويرها.

وقفت رنيم فجأة وقالت:

– جورج، هل يمكنك مغادرة الغرفة قليلا.. أحتاج إلى الحديث مع موكّلي بشكل خاصّ!

بُهت الاثنان، لكنّ أحدهما لم يعترض. أغلقت الباب ثمّ رجعت في اتّجاه عمر. همست في قلق:

– لقد حسبت هيثم المتّهم الرئيسي.. كونه مدير الشّركة، وإصاباته توحي بأنّه المستهدف! لكنّ ما ذكرته منذ حين يضرب بتوقّعاتي عرض الحائط!

قال عمر ببساطة:

– أنت لم تسألي.. وأنا لم أنكر. أنا المسؤول الأوّل عن المشروع. هيثم تعاون معي، أنشأ الشّركة باسمه.. لأنّه فرنسيّ الجنسيّة. في حين أنّني واجهت صعوبات جمّة مع الإدارة الفرنسيّة في وقت سابق. ثمّ عمل على البرمجة الخاصّة بتوجيه الطّائرة بدون طيّار.. لكنّني كنت الواجهة بالنّسبة إلى التّواصل مع المقاومة الفلسطينيّة.. وهو لم يكن يعرف أحدًا منهم!
زفرت رنيم في ضيق. هذا يقلب الوضع رأسًا على عقب. تعلم أنّ عمر لن يُحاول تزييف الحقائق إذا وُوجه بها في المحكمة، وسيفعل ما بوسعه لتحمّل المسؤوليّة كاملة ورفع العبء عن صاحبه. قالت في تحذير:

– لا تعترف بكلّ شيء هكذا أمام المدّعي العام والمحقّقين! دع لي مجالا لأضع خطّة دفاع مناسبة! أنت لا تريد أن تُمضي بقيّة حياتك خلف القضبان، هل تريد؟

قال في مرارة:

– لا أريد أن يدفع شخص آخر ثمن ما اقترفته يداي.. هذا كلّ ما في الأمر! يكفي ما طاله من أذى جسديّ حتّى الآن...

قاطعته رنيم في حدّة:

– في الوقت الحالي، الزم الإنكار.. أنت لا تعرف شيئا! إن سألوك عن نشاط الشّركة، يمكنك الرّدّ.. إن تحدّثوا عن تنقّلاتك إلى سوريا وغزّة، جد أعذارًا أخرى..

التّجارة مثلا! التّسويق لمنتجات الشّركة! لا تضع على عاتقك أيّ مسؤوليّة. وإذا ألحوا، الزم الصّمت!

- لكنّني أكون قد رميت المسؤوليّة على هيثم!

- لا تقلق على هيثم.. لديه محامٍ بارع يدافع عنه!

قالت ذلك، ثم دعت جورج إلى الدّاخل.

- هل انتهيتما؟

- انتهينا هنا.. لكنّني أحتاج منك خدمة. أرجو أن تنسى ما قيل قبل حين عن تصاميم الطّائرات الموجّهة، والتّواصل مع المقاومة!

حدّق فيها جورج لبرهة، ثمّ هزّ رأسه وهمس:

- فهمت. لم أسمع شيئا بهذا الصّدد.

- ممتاز. يمكننا أن نستأنف المقابلة إذن.

قاطعها عمر بشكل مفاجئ وهو يقول:

- قبل أن نخطو أبعد.. جورج، أريد منك أن تمثّلني في هذه القضيّة!

تسمّرت رنيم مكانها في دهشة وارتباك، بينما لم تكن مفاجأة جورج تقلّ عنها وهو يقول في انصياع:

- إن كانت هذه رغبتك.. فلا مانع لديّ.

ثمّ حوّل بصره إلى رنيم التي بدت مصدومة رغم ثباتها الظّاهريّ. قالت بصوت مهتزّ:

- طبعا.. هذا خيارك في نهاية الأمر. لكن.. هل لي أن أعرف السّبب؟

ابتسم عمر وهو يقول:

- سأشعر بالارتياح إن دافعت عن هيثم بالشّراسة التي عهدتها فيك!

تعالى لغط خارج الغرفة على حين غرّة، وتدافعت خطوات ثقيلة في الممرّ، قبل أن يقتحم المدّعي العامّ الجلسة وبرفقته عدد من رجال الأمن. تطلّع إلى رنيم وجورج بابتسامة وقال بلهجة ساخرة:

- أستاذة رنيم شاكر، سعدت برؤيتك.. المحامية «النجمة» لا تفوّت القضايا المميّزة.. هذا مؤكّد!

ثمّ تحوّلت نظراته إلى عمر وهو يردف بنبرة صارمة:

- دكتور عمر الرّشيدي، أنت رهن الاعتقال، بتهمة التّعاون مع جماعة إرهابيّة.. من حقّك الاحتفاظ بالصّمت، لأنّ كلّ كلمة تقولها قد تستخدم ضدّك في المحكمة.. من حقّك الحصول على دفاع، ويبدو لي أنّ لديك محاميين اثنين هنا.. أيّكما يمثّل المتّهم؟

تصدّى جورج على الفور:

- أنا.

- جيّد.. سنحدّد موعدًا لاستجواب المتّهم قريبا. ونظرًا للظّروف الصحيّة، سنضع حراسة على الغرفة.. حتّى يسمح الطّبيب بتسريحه. في الأثناء، يمكن للمتّهم تلقّي الزّيارات المعتادة.

حيّاهما بحركة من رأسه ثمّ استدار على عقبيه. أشار إلى رجلين بالبقاء عند الباب، بينما ابتعد برفقة بقيّة أتباعه.

همس جورج إلى رنيم:

- اذهبي.. إنّهم يتّجهون إلى غرفة هيثم!

***

رغم عدم ارتياحها إلى ما آلت إليه الأمور، فإنّها شعرت بالاسترخاء وهي تركب سيّارتها نهاية النّهار. لقد كانت أعصابها مشدودة طيلة الوقت. قدوم المدّعي العامّ أدّى إلى تسارع الأحداث.. وهي قد وجدت نفسها تمثّل هيثم في نهاية المطاف! لم تكن تلك رغبتها الصّميمة، لكنّ النّتيجة مناسبة من أكثر من زاوية.

زارت ياسمين في غرفتها في قسم الولادة، ثمّ -أثناء فحص الطّبيبة لياسمين- شرحت الوضع أمام والدي هيثم باختصار. ستكون هناك محاكمة، وهي ستدافع عن هيثم. ثمّ حاولت الاتّصال بشهاب مرّة أخرى، وحين لم يصلها ردّ كالعادة، كتبت إليه رسالة.

«لن أدافع عن عمر في هذه القضيّة».

حسبت أنّ ذاك القرار -وإن لم يكن قرارها- سيؤدّي إلى عودة المياه إلى مجاريها. فذاك كان مطلبه الوحيد، وسبب رحيله!

في مخيّلتها، كانت حياتها جزءًا لا يتجزّأ من «قصص الجنيّات» التي تُروى على مسامع الأطفال، حيث كلّ شيء مبالغ فيه، مميّز وساحر.

كانت ترفض العلاقات البسيطة والأحداث الرّتيبة، وتبحث عن الإثارة بلا هوادة. وقد عاشت تلك المشاعر المتأجّجة، في وقت ما، تجاه ميشال، فأهدته قطعة من جسدها، لينتهي عند قدميها وبين كفّيه باقة حمراء، بحجم فترة فراقها. ثمّ حسبت قصّة «المتّهم والمحامية» مصيرها المحتوم، فعاشت الدّور بانغماس تامّ، حتّى تبدّد السّراب فجأة. ثمّ كان لقاؤها وشهاب تجسيدًا لمتلازمة «فارس الأحلام» التي تسكن لا وعيها. وإن فشلت في إبداء مشاعر حبّ حقيقيّة رغم محاولاتها، فإنّها قد حظيت بكلّ ما ترنو إليه بطلات الحكايات: خاتم ماسيّ فاتن، حفل زفاف فاخر، شهر عسر مذهل، وأمير وسيم يقع في حبّها من أوّل نظرة، ويمضي حياته متيّما متفانيًا في إرضائها. لذلك فإنّها لم تشكّ قطّ في استمرار عاطفته تجاهها، مهما ندّ عنها من تصرّفات غير مسؤولة.

كانت في قرارة نفسها تضمن بقاء شهاب إلى جوارها.. إلى الأبد!

بعد دقيقتين، رنّ هاتفها. ابتسمت وهي تطالع رقم شهاب. كانت محقّة. هتفت في لهفة:

– أين أنت؟

لكنّ شهاب فاجأها بصوته البارد:

– ما الذي جعلك تغيّرين رأيك؟

– ما المهمّ في هذا؟ لقد غيّرت رأيي وانتهى الأمر.

– هل كانت تلك رغبتك؟ أم أنّك أجبرت على ترك القضيّة؟

ساد الصّمت لثوانٍ قبل أن يقول شهاب بلهجة ساخرة:

- هذا ما ظننته!

حافظت رنيم على ثباتها وهي تردّ:

- لقد سارت الأمور وفق هواك.. وهذا يفترض به أن يحلّ المشكلة.. أليس كذلك؟

- لا يا حبيبتي.. هذا لا يحلّ المشكلة! هذا يجبرني على أخذ موقف أكثر صرامة.. لأنّ الخيبة تغمرني! أنت لم تفعلي شيئا لإرضائي.. وتتوقّعين منّي الرّضا؟ بهذه البساطة؟

زفرت بقوّة، وتردّد نفس عميق في صدرها. بعد لحظات، كانت رنيم تقول في لين، محاولة تخفيف حدّته التي باتت تخشاها:

- ما الذي يرضيك إذن؟

- أن تتركي العمل في باريس.. أن نستقرّ معًا في القاهرة، مثل أيّ زوجين طبيعيّين، يتقاسمان تفاصيل الحياة الحقيقيّة لا قشورها!

سيطر عليها الذّهول. لقد أطلق العنان لعفريت القمقم. أصبحت مخاوفها تقف إزاءها، ترهبها وتملؤها رعبًا.

- لم يكن هذا اتّفاقنا...

- لم يكن.. صحيح. كنت أحاول طيلة سنة ونصف أن أكسبك إلى صفّي.. أن أجعلك تقتنعين تلقائيّا وتدريجيّا بمعنى الحياة كاثنين، لا كفرد منطلق وحرّ. لكنّني أقف

اليوم لأعلن استسلامي.. لقد أخطأت في تقديري. هذه الحياة ليست ممكنة. هذا الاتّفاق كان خطأ منذ البداية. وهذه فرصتنا للتّصحيح...

تنزل كلماته واحدة إثر الأخرى مثل الصّاعقة. التّصحيح؟ ما الذي قصده تحديدًا؟ الفراق؟ الانفصال؟

تابع بلهجة أكثر لينًا:

– رنيم بربّك.. ألا تريدين عائلة حقيقيّة؟ أنا أريد! أريد طفلة تشبهك.. أريد أولادًا يملؤون حياتنا بهجة. فكيف نحقّق أحلامنا بالذرّيّة ونحن غريبان يلتقيان في فندق كلّ حين وآخر؟

قالت في اعتراض:

– هذا ليس حلمي. ليس الآن! مازالت أمامي طموحات كثيرة.. والأطفال سيعطّلونها لا محالة!

زفر في إعياء، ثمّ قال بفتور:

– أظنّنا وصلنا إلى طريقٍ مسدودٍ إذن...

في الخلفيّة، سمعت صوت إعلان عبر مكبّر صوت ما، يدعو ركّاب رحلة القاهرة الدّوليّة للالتحاق بقاعة الرّحيل. ازدردت لعابها في توتّر وهمهمت:

– هل سترحل؟

– أنا ذاهب. ولا داعي لمجيئك الشّهر القادم.

تواصل الصّمت الثّقيل لحظات بعد، قبل أن يتابع شهاب في جفاء:

- الوداع.

تركت هاتفها في صدمة.

لقد حذّرتها ياسمين. لكنّها لم ترد أن تتنازل قطّ عن دور بطلة الحكاية.

-٣٠-

طرقت آية باب الغرفة بهدوء، بعد أن تأكّد رجل الأمن بالخارج من هويّتها ومهرت دفتر الزّيارات بتوقيعها. ترقّبت لحظات، وحين لم يصلها ردّ، دفعت الدّفّة وخطت إلى داخل الغرفة. كان عمر يرقد على سريره وحيدًا، وقد سكن الجوّ إلّا من صفير الآلات الطبيّة.

تملّكتها رغبة مستبدّة بالبكاء، وهي تطالع الضّمادات التي تلفّ كتفه وذراعه والجزء الأعلى من صدره. فتح عمر عينيه على صوت نهنهتها الخافتة. كانت عيناها محمرّتين والعبرات تسيل على وجنتيها دون توقّف. اقتربت حين انتبهت إلى نظراته نحوها، وحاولت أن تبتسم:

- كيف أصبحت؟

تمتم بصوت ضعيف:

- الحمد لله.

جلست على أحد المقعدين المنفردين بالغرفة، واستمرّت تنشج. كلّما حاولت السّيطرة على ارتجافها وتخفيف دمعها، بدأت نوبة جديدة من البكاء على أثرها. كانت قد تأخّرت في القدوم لزيارته، ولم يكن يجد لذلك تفسيرًا. بلّغته رنيم بتنفيذها للمهمّة التي عهد بها إليها.. فتوقّع ظهورها في أيّ لحظة. لكنّ الكلّ أتى، ما عداها. فكّر كثيرًا بأنّ ذلك أفضل. لم يكن يودّ توريطها، لكنّه لم يستطع الامتناع عن التّساؤل في حيرة حينا وفي قلق طورًا عن أسباب تأخّرها. أمّا وهو يرى بعينه مبلغ تأثّرها، فإنّ كلّ العتاب يتلاشى من قاموسه، ولا يجد في قلبه إلّا السّرور. قال مهوّنا عليها:

– أنا بخير.. كفكفي دمعك. ليس ما أصابني بالخطير.

ثمّ أضاف يمازحها:

– ظننتك أقوى من هذا.. تربّيت في بيت مقاومة وشهادة!

لكنّ العبارة التي رام بها شدّ أزرها زادت الطّين بلّة! بعد دقائق، بدا أنّها قد نجحت في إيقاف السّيل المتدفّق من مقلتيها أخيرًا. تنحنحت ليجلو صوتها، ثمّ قالت بهمس:

– ظننتُني تعوّدت المصائب فما عادت تؤثّر بي مثل السّابق.. لكنّني مخطئة. الابتلاءات درجات.

ساد الصّمت لبرهة، قبل أن تقول بصوت متهدّج يقطر حزنًا:

– لقد تردّدت في المجيء.

أصاخ السّمع في توجّس، فواصلت:

– لم أعرف، إن كانت زيارتي ستكون في صالحك أم عبئًا عليك. لعلّها تثبت علاقتك بالفلسطينيّين، وتورّطك أكثر! لعلّك في غنى عن هذا.

ملأه الارتياح وهي تلفظ تلك الكلمات. لقد أراد ابتعادها، خوفًا عليها. وتأخّرت في المجيء خوفًا عليه. قاطعها في حزم:

– علاقتي بالفلسطينيّين شرف لي، ولم يخطر ببالي قطّ أن أنكر!

تنهّدت بعمق، ترتّب أفكارها. لعلّها توقّعت موقفه ذاك. وهذا يجعلها تمرّ إلى الخطوة العمليّة التي جاءت من أجلها. قالت وقد استعادت رباطة جأشها:

– خالي عزّام يُقرئك السّلام.

تنبّهت حواسّه وقد أدرك أنّ ما بجعبتها يحتاج تركيزه، فأردفت:

– قال أنّهم سيستجوبونك قريبًا.. وأنت تحتاج توضيحًا لتحرّكاتك في سوريا وغزّة. إنّهم يعرفون علاقتك بالمقاومة.. لن يمكنك أن تنكر. لكن يخفّف عنك العقوبة أن تُمدّهم ببعض المعلومات.

هتف بصوت متحشرج:

– ماذا تقصدين؟

– ليست أكثر من بضع كنى معروفة لديهم.. لكنّها ستثبت صدقك وشفافيّتك. إذا ادّعيت أنّك مخدوع، وتمّ استدراجك، وكشفت تلك القائمة من المطلوبين.. تضمن حكمًا مخفّفًا. اسمع واحفظ!

أصغى إليها في انتباه، وهي تكرّر أسماء المجاهدين المعروفين الذين لا يخفون على الاستخبارات الدّوليّة. بعضهم سبق له لقاؤه وآخر غريب عنه. حين فرغت، كرّر

القائمة على مسامعها، فأومأت موافقة. زفرت من جديد، وقد انتهت من مهمّتها، فاسترخت ملامحها. قالت أخيرًا بصوت مهتزّ:

– لقد كنت أسمع عن شدّة الغزّاويّات ورباطة جأشهنّ، تحمّلهنّ للصّعاب وهنّ يتردّدن على السّجون، ويترقّبن عودة زوج أو خاطب أو شقيق.. لكنّني لم أتهيّأ لاقتحام التّجربة بهذا الشّكل.. لم أتوقّع أن تهبط الصّاعقة علينا في هذا الوقت، قبل أسبوعين من الزّفاف!

ران الصّمت طويلا عليهما، ثمّ قال عمر بفتور:

– أنت ما زلت حرّة، لست مجبرة...

قاطعته على الفور بلهجة قاطعة وهي ترنو إليه بقوّة:

– ليس هذا ما قصدته! سأنتظر.. مهما طال الأمد سأنتظر! لكنّني محرجة من ضعفي وقلّة حيلتي. لست أملك كلمات شافية، تخفّف عنك أو تواسيك.

ابتسم بوهن وقال:

– هوّني عليك. ما أصابني لم يكن ليخطئني.. وأنا راضٍ، رغم كلّ شيء. ولا أريدك أن تفكّري لحظة واحدة بأنّك مسؤولة عمّا آلت إليه الأمور!

ابتسمت بدورها وهي تقول:

– أرأيت؟ أنت تواسيني الآن! أنا حقّا بلا فائدة!

ضحك عمر، رغم المرارة التي تترع فؤاده، ثمّ قال:

– أقدّر لك مجيئك اليوم.. وأقدّر لخالك عزّام اهتمامه وتكبّده عناء استنباط مخرج لي. لكنّني لا أريد لأيّ منكم أن يطاله أذى بسببي.

– أنت لا تريد الاعتراف بهذا، لكنّها قضيّتنا قبل أن تكون قضيّتك!

قال بصوت جادّ:

– آية، أرجوك.. هلّا سافرت ووالدك لقضاء بعض الوقت في بروكسيل؟

سيطر عليها الذّهول لبرهة. لقد اقترح خالها الأمر ذاته منذ عُرف الخبر. قال أنّه سيرتّب لها ولأبيها مقرّ إقامة مناسبًا بالقرب منه. لم يكن بقاؤها في باريس مفيدًا بأيّ شكل. وها هو عمر يكرّر عليها الطّلب، كأنّما قد اتّفقا عليها. قالت في إباء:

– سأنتظرك!

– مدّة المحاكمة وحسب.. أرجوك! لا أريد أن تُستدعي للشّهادة، ولا أن تتعرضي للمضايقة. هل تفهمين؟

أومأت في إذعان، ثمّ هتفت وقد اغرورقت عيناها دمعًا من جديد:

– لكنّني سأنتظر!

*

في المساء، دخل المحقّق برفقة أحد أعوانه، وجلسا قبالة عمر، بينما لبث جورج واقفًا في ركن الحجرة. أعلن عن انطلاق الاستجواب موجّها سؤاله الأوّل إلى عمر:

- دكتور عمر الرّشيدي.. أين كنت في الفترة الفاصلة بين ديسمبر ٢٠٠٨ وسبتمبر ٢٠٠٩؟

- في سوريا.

- ماذا كنت تفعل هناك؟

- سياحة!

- من قابلت هناك؟

- أشخاصًا كثرًا، مثل أيّ سائح.. لا أستحضر قائمة بالأسماء.

- هل تدرّبت على حمل السّلاح في فترة إقامتك هناك؟

- لا!

- هل التقيت بأعضاء إحدى المنظّمات الإرهابية؟

- لا!

- في الفترة الفاصلة بين أوّل سبتمبر ومنتصف الشّهر ذاته، أين كنت؟

- كنت في فلسطين المحتلّة.

– ماذا فعلت في تلك الفترة؟

– ذهبت في زيارة لأهل الفتاة التي أفكّر بالزّواج بها.

– ما اسم الفتاة؟

– آية الغزّي.

– مقرّ إقامتها؟

– بروكسيل.

– هل حصلت على مخطّطات لصناعة طائرات بدون طيّار من أعضاء المقاومة؟

– لا!

انتهى الاستجواب خلال نصف ساعة، سدّد خلالها المحقّق أسئلة غاية في الدّقّة والخصوصيّة، وأدرك عمر أنّ ما بحوزتهم من معلومات يعيد رسم تاريخه كاملا.. لكنّه أنكر إنكارًا تامّا كما أشارت رنيم. حين فرغ المحقّق، أغلق ملفّاته في حركة مستاءة وقال:

– لن تستطيع الإنكار طويلا.. لدينا سبلنا لاستخراج المعلومات مهما طال الأمد.

ألقى عمر نظرة قلقة على جورج، فأشار إليه أن أحسنت صنعا.

زفر بقوّة حين خلت الغرفة من الزوّار أخيراً. ربّما سيأتي وقت يضطرّ فيه أن يعترف. لكنّه سيحاول كسب الوقت كما طلبت منه هيئة الدّفاع، لعلّهم يتمكّنون من إيجاد مخرج ما.

*

استمرّت الجلسة حتّى السّاعة الثّامنة مساءً، لليوم الثالث على التّوالي. انكبّ جورج ورنيم على مراجعة ملفّات القضيّة بتأنّ وتركيز. ينظران في الأدلّة بتروّ ويمحّصان التّهم بأناة. لكنّ أيّا من مسارات الدحض التي ناقشاها لم تسفر عن بصيص نور.

قالت رنيم وهي ترتشف كوب قهوتها الثّالثة لذلك المساء:

– تلحّ عليّ فكرة لا أتمكّن من طردها.. أنّ علينا التّضحية بأحدهما حتّى ننقذ الآخر! إنّ دخول قضيّة خاسرة بهذا الشّكل، يعني ضمان العقوبة القصوى لكليهما! ليس بيدنا أيّ خطّة دفاع محتملة. لكنّ وضع اللّوم على واحد فقط، قد يمكّن الثّاني من النّجاة. أحدهما يتحمّل اللّوم عن صاحبه.. فيكون هو الذي خطّط لكلّ شيء.. والثّاني كان شريكا في المشروع دون دراية بأبعاده كافّة!

هزّ جورج رأسه في تفهّم وهو يقول:

– عمر الرّشيدي هو صاحب الفكرة، وهو منسّق التّواصل مع الجهات الفلسطينيّة.. وهو مصمّم الطّائرة ومخترع البطّاريّة.. وقد دخل غزّة سابقا وتدرّب على أيدي رجال المقاومة في سوريا!

أومأت رنيم وهي تستطرد:

– العاطفة تقول أنّ هيثم يستحقّ النّجاة، لأنّه شريك بنسبة أقلّ أوّلا، وبسبب زوجته وطفله ثانيًا...

هزّ جورج رأسه موافقا، فأردفت:

– والعقل يقول أنّ عمر هو الذي يجب أن ينجو! حظوظ هيثم في استرجاع صحّته ضئيلة. تخيّل.. أنّنا نجعل عمر يتحمّل اللّوم كاملا –وهو لن يمانع– وأنقذنا هيثم.. ثمّ يموت هيثم! ألن نكون قد خسرنا خسارة مضاعفة؟

ضحك جورج في مرارة ثمّ قال:

– لا تنسي أنّك تمثّلين هيثم يا عزيزتي! هل هذا أقصى ما لديك؟

زفرت في ضيق وقالت:

– يؤلمني أن أقول هذا.. أحيانا أفكّر أنّ موت هيثم سيكون حلّا للمشكلة! إن كان لا بُدّ أن يموت، فأرجو أن يموت في الوقت المناسب.. لا بعد فوات الأوان!

لم ينبس جورج ببنت شفة، فأردفت رنيم بلهجة متهكّمة:

– هل فقدتُ أخلاقيّات المهنة برأيك؟

أخذ جورج يلهو بالقلم بين أصابعه في سرحان، ثمّ قال:

– أنت يائسة.. هذا كلّ ما في الأمر! والتّفكير اليائس يدفع نحو الحلول المتطرّفة والمجنونة.

– أنا لا أقول أنّني قد أتسلّل ليلا وأوقف جهاز تنفّسه.. لكنّني...

– لكنّك تتمنّين أن يموت تلقائيّا، قبل بدء المحاكمة.

– أنا فقط أدعو الله.. إن كان هيثم سيموت في كلّ الأحوال، فليكن ذلك الآن!

ابتسم جورج ثمّ تمتم:

– آمين!

***

وقفت ياسمين إزاء الحارس الذي ينتصب عند مدخل قاعة العناية المركّزة. سلّمته هويّتها ووقّعت دفتر الزّيارات، ثمّ دلفت إلى الغرفة ومن خلفها ممرّضة تدفع المحضنة الاصطناعيّة وبداخلها طفلها. همست شاكرة وهي تشير إليها بتقريب المحضنة من سرير هيثم. كانت قد حصلت على إذن استثنائيّ من قسم الولادة حتّى تأخذ ولدها لرؤية أبيه. استماتت في المحاولة، وداومت على طرق أبواب الأطباء والمسؤولين، حتى حظيت بالموافقة أخيرا. كان على الرضيع أن يزور والده المحتضر ولو مرّة وحيدة!

– لديك خمس دقائق.

أومأت ياسمين في استسلام مع إعلان الممرّضة الصّارم. خمس دقائق ثمينة هي كل ما لديها من أجل الاجتماع العائليّ الأوّل. جلست على المقعد، وقالت تخاطب هيثم كما تفعل منذ أيّام:

– لم أحضر بمفردي اليوم.. جئت بعزّ الدّين! تأخّر لقاؤكما حتّى الآن!

كانت تخزّن في أمنياتها صورة مختلفة للولادة المثاليّة. أن يُرافقها زوجها إلى غرفة الوضع، فيمسك بكفّها ويخفّف شدّتها بهمسات ونظرات.. ثمّ يحمل وليده بين ذراعيه،

فيؤذّن في أذن ويقيم في الأخرى. بعد ذلك يأتي به إليها، فتضعه على صدرها، تشعر بدفئه وملمسه النّاعم، ويتبادل ثلاثتهم نظرات حبّ وحنان.

لقد حُرمت كلّ ذلك. لكنّها ستصنع ذكريات أخرى، حتّى لو حالت الصّعوبات دون اجتماعهم في حضن عائليّ مشترك، فستسعى إلى تقريب المسافات. الآن، تمسك يُمناها كفّ هيثم المسجّى على السّرير بلا حراك، وتدسّ يُسراها داخل المحضنة لتلامس برفق كفّ عزّ الدّين الهشّة القرمزيّة. تغمض عينيها وتهمس:

– نحن عائلة.. سنتمسّك بأيدي بعضنا بعضا، وستنقضي هذه المحنة.

تتلألأ العبرات في عينيها. تدرك أنّ حالة عزّ الدّين مستقرّة، لكنّ وضع هيثم ليس كذلك. لم يقل الطّبيب المتابع أيّ شيء مطمئن. لم يتغيّر شيء منذ العمليّة. لا شيء يدعو إلى التّفاؤل، لكنّها تكثّف الدّعاء له في كلّ ساعة. إنّها تترقّب معجزة.. وتعلم أنّ معجزتها الأولى تحتاج ثانية تليها ليكتمل هناؤها.

يعتقدون أنّها في غفلة عمّا يدور حولها. يتجنّبون الحديث عن حقيقة الحادثة، مَن وراءها وما هي دوافعها، والنّتائج المترتّبة عنها. لكنّها تلتقط الكلمات الخافتة وتجمع العبارات المتناثرة، على ألسنة الممرّضات المتهامزات، والهمسات المتبادلة عند رأسها أيضا، حين يعتقدون خلودها إلى النّوم.

حين يستيقظ هيثم، سيكون عليه أن يواجه اتّهامات قاسية. تتقاذفها مشاعر شتّى، بين فخرها به واعتزازها بانتمائه إلى المقاومة الفلسطينيّة بشكل أو بآخر، وإشفاقها ممّا ينتظرهم جميعًا من مصير مجهول المسالك. لم يكن بوسعها أن تلومه، لأنّه لم يفكّر فيها وفي وليدهما. ليست تدرك على وجه الدّقّة ما كانت طبيعة نشاطه، لكنّها تعرف أنّه وطأ موطئا يغيظ الكفّار، ونال من العدوّ نيلا، حتّى جدّوا في أثره حتّى باريس.. فكيف بالله تلومه؟

استسلمت لأفكارها المتناقضة التي تمزّقها من الدّاخل وتدمي قلبها، حتّى شعرت بضغطة أصابع هيّنة على راحتها. انتفضت، والتبس عليها الأمر بداية. تنقل نظرها بين رجليها، الكبير والصّغير، ويتوه منها الإدراك. من منهما ضغط على كفّها بأنامله؟ الرّضيع الذي لا تحتمل لمسته أكثر من الدّغدغة، أو الرّجل الرّاقد في غيبوبة؟

مرّة أخرى، ضغطت الأصابع المستقرّة في يمناها، فحدّقت في وجه هيثم غير مصدّقة. تركت كفّ وليدها واستأثر والده بانتباهها. لمحت رموشه تتحرّك، تهتزّ برفق دون أن يفتح عينيه واسعتين، ثمّ أتاها همسه بصوت خفيض متحشرج:

- ياسمين!

اقتربت أكثر، وقلبها ينتفض بين ضلوعها. أصغت غير مصدّقة إلى همسه، تخال نفسها تحلم.. أو ربّما من فرط تعبها يُهيّأ إليها أن الأماني تتحقّق والمعجزات تصير واقعًا.

- كيف أنت؟

- أنا بخير.. حمدًا لله على سلامتك!

تشبّثت بذراعه، ترنو إلى عينيه نصف المغلقتين، وتفيض العبرات على وجنتيها بسخاء، بينما تتمتم شفتاها دون توقّف:

- اللّهم لك الحمد.. اللّهم لك الحمد!

جاءها صوته من جديد، مكدودًا، يكاد يخنقه الأنين:

- عمر؟

- عمر بخير.. جراحه ليست خطرة.

أسبل جفنيه، فقرأت علامات الألم على وجهه واضحة. تركت كفّه وهمّت باستدعاء الممرضّة، فقبض على معصمها فجأة. همس بصوت لا يكاد يُسمع:

– ابقي قليلا.

أومأت، رغم الخوف الذي يعتصر فؤادها. قالت وهي تشير إلى المحضنة:

– هل رأيت عزّ الدّين؟

– عزّ الدّين؟

في صوته رنّة لهفة ودهشة، وعيناه تبحثان في مجال رؤيته المحدود.

– أين هو؟

التقت العينان لبرهة، ففاضت الدّموع من عيني هيثم، وأصدر الولد صوتًا رقيقا معربًا عن ارتياحه في تلك الوضعيّة.

ابتسمت ياسمين وهي ترمقهما بحبّ. وتمنّت أن يتوقّف الزّمن طويلا عند تلك اللّحظة، لتملأ عينيها من مشهدٍ رائق رغم الإطار المحزن. تمنّت أن يختفي رجلا الأمن من أمام الباب، وتتلاشى الأنابيب الطبيّة والآلات المحيطة بهم، وأن تخزّن في ذاكرتها حلاوة المشهد وحدها، دون أوجاعه وأحزانه.

ارتفع بكاء الطّفل فجأة، بصوته الخافت الذي يكشف ضعفه وقلّة حيلته. همست:

– لعلّه يشعر بالبرد.. المحضنة تبقيه دافئا.

رفعته عن صدر أبيه وأعادته إلى المحضنة، فاستكان سريعًا واستسلم للنّوم. ثمّ سرعان ما دخلت الممرّضة لتصطحب الطّفل إلى الحضانة. رجعت ياسمين ببصرها إلى هيثم بعد أن ودّعت وليدها، ففاجأت للمرّة الثّانية أمارات وجع شديدٍ على ملامحه. هتفت في قلق:

- هل تتألّم؟

استدار إليها وقال:

- الغرفة باردة، هلّا خفضت التكييف؟

سارعت لرفع درجة حرارة الغرفة، ثمّ عادت إلى جواره، وهمست:

- والآن؟ هل تشعر بتحسّن؟

تعلّقت عيناه بوجهها وقال:

- تبدين أنحف.. لكنك أجمل.. من كان يظنّ أنّ الأمومة تليق بك!

أطلقت ضحكة قصيرة. تعلم مدى البشاعة التي تبدو عليها، بهالاتها السّوداء العميقة والعينين المحمّرتين المتورّمتين من أثر البكاء، والعظام البارزة والبشرة الشّاحبة لقلّة شهيّتها. عن أيّ جمال يتحدّث؟ أضاف أمام استطالة صمتها:

- لا تحزني.. ستأتي أيّام جميلة، ولو بعد حين...

عضّت على شفتيها، تغالب رغبة ملحّة في النّحيب، وهزّت رأسها بقوّة، تؤيّد كلماته.

- سأنادي الممرّضة.. يجب أن يراك الطّبيب.

همس بخفوت:

- أشعر بالنّعاس.. ابقي حتّى يغلبني النّوم.

جلست قربه، وقد احتفظ بكفّها في كفّه. أخذت أنفاسه تنتظم، فتنهّدت. كانت تشعر بالارتياح لاستيقاظه، لكنّها بعيدة عن الطمأنينة والاسترخاء. ما إن أغلق جفنيه حتّى سرحت أفكارها بعيدًا. لكن لا شيء يهمّ، ما دام هيثم إلى جوارها، ستكون قادرة على مواجهة بشاعة العالم بجسارة. يكفي أن يكون حيّا يتنفّس ويبتسم ويبثّها الدّفء والسّكينة.

حين تراخت أصابعه، أفلتت كفّه وهرولت إلى الممرّ. على الفور، اتّصلت بالجميع. زهور، ميساء، سكينة، رنيم.. كانت تريد أن يشاركها البشرى أكبر عدد ممكن من الأحباب.

***

ارتفع رنين هاتف رنيم وهي منهمكة في مطالعة ملفّ القضيّة للمرّة العاشرة. طالعت الشّاشة لتقرأ اسم ياسمين. رفعت حاجبيها دهشة، وشعرت بوخزة في صدرها، كأنّها مذنبة أُخذت بالجرّم المشهود! جاءها صوت ياسمين تملؤه الفرحة:

- لقد استيقظ يا رنيم! هيثم استيقظ!

- يا إلهي! هذا مذهل.. تهانينا!

كانت تزفّ إليها النّبأ وهي تلهج بالحمد والشّكر، لأنّ المعجزة التي تمنّتها وترقّبتها تحقّقت. قالت رنيم وقد تداخلت في عقلها مشاعر الصّديقة وواجبات المحامية:

– أنا قادمة حالًا.

زفرت بحرارة بعد أن أنهت الاتّصال. تشعر بالارتياح الآن. لقد تخلّصت من عبء أمنيتها الخفيّة القبيحة التي تثقل ضميرها. لكن بات عليها أن تواجه الكابوس الثّقيل بكفّها العارية!

حثّت خطاها في ممرّ المستشفى. كان عليها أن تصل إلى هيثم قبل أن يطير خبر استيقاظه إلى المدّعي العامّ. يجب أن تُعدّه للاستجواب على انفراد، كما فعلت مع عمر. لكنّها تشعر بثقل في ركبتيها وخدر في ساقيها. لقد غدت المهمّة شائكة أكثر بهذا الشّفاء المعجز!

تعالى رنين هاتفها قبل أن تخطو عبر مدخل قسم العناية. رجعت أدراجها في توجّس وهي تطالع الرّقم المألوف المسجّل عندها.. مكتب المدّعي العامّ!

– أستاذة رنيم.. بلغني أنّ موكّلك قد استيقظ. تهانينا!

ابتسمت في تهكّم وهي تردّ:

– سيّدي المدّعي العام، أرى أنّ الخبر لم يتأخّر في الوصول.

– المهمّ.. أودّ أن أهديك هذا العرض الاستثنائيّ، قبل أن نلتقي وجها لوجه.

– عرض؟

زوت ما بين حاجبيها في تركيز واهتمام.

– أنا وأنت نعرف المنظومة القانونيّة جيّدًا.. إذا بدأت المحاكمة، فستستمرّ لسنوات ربّما. ستكون هناك ضغوطات دوليّة وتدخّلات خارجيّة، في حين أنّ الملفّ بسيط.. بإمكاننا الانتهاء من كلّ هذا بسهولة.

– هات ما عندك!

قال بلهجة حاسمة وواضحة:

– خمس سنوات نافذة. يعترف موكّلك على صاحبه، يُقدّم كلّ ما بحوزته من أدلّة.. ويُحاكم عمر الرّشيدي كمتّهم رئيسيّ.. ماذا قلت؟

هوى قلبها بين قدميها. غمغمت بصوت مرتجف:

– سأبلّغ موكّلي بعرضك.

– سأكون في الانتظار أستاذة رنيم.. العرض سارٍ لثمانٍ وأربعين ساعة فقط. بعدها، سيكون لقاؤنا في المحكمة!

ترنّحت خطوات رنيم في الممرّ. لا تدري إن كان عليها اجتياز المدخل في ذلك الوقت أم تأجيل اللّقاء. لقد كان عرض المدّعي العام مغريا ومزلزلًا في آن. كمحامية تمثّل هيثم، وتدرك حجم القضيّة والعقوبة المتوقّعة، كان عليها أن تشجّع هيثم على الاعتراف. لكنّها تدرك أيضا أنّ اعتراف هيثم سيؤدّي إلى غياب عمر وراء الشّمس!

غير أنّها تحسب هيثم لن يفعل ذلك بصاحبه.. مثلما لم يكن عمر ليقبل بعرض مشابه.

توقّفت فجأة وقد راودها خاطر ما. تناولت هاتفها من جديد. اتّصلت بجورج، فألفت الخطّ مشغولا. تزايدت نبضاتها في عنف. هذا ما كانت تخشاه. ترقّبت بضع ثوانٍ ثمّ كرّرت المحاولة. ما إن وصلها صوت جورج حتّى هتفت:

- هل اتّصل بك مكتب المدّعي العام؟

تريّث جورج قبل أن يسأل في حذر:

- هل اتّصلوا بك أيضا؟

زفرت بحدّة. هذا ما يسعون إليه إذن. زرع الشّقاق بين طرفي الدّفاع.

- ماذا كان العرض؟

- عشر سنوات نافذة.. مع الاعتراف على هيثم.

فغرت فاها دهشة. لماذا الاختلاف في المدّة؟ عرض هيثم أكثر من مغرٍ! خمس سنوات فقط؟ كأنّهم يسحبون عمر سحبًا نحو الكرسيّ الكهربائيّ! لكنّ هيثم لن يفعل.. تثق بأنّه لن يعترف! غير أنّ التّفويت في فرصة المساومة مع مكتب الادّعاء يعتبر غباءً.. خاصّة حين تكون فرص النّجاة معدومة!

تشعر برأسها يكاد ينفجر من التّفكير، وبالأرض تميد تحت قدميها. تنفّست بعمق، واستندت بذراعها إلى جدار الممرّ. قالت أخيرا بلهجة تبدو واثقة:

- لن نسمح للمدّعي العام بتفريق صفوفنا الآن.. هيئة الدّفاع ستظلّ متماسكة.

– بالتّأكيد. لم أخبر عمر بعد بشأن العرض، لكنّ أنت تعرفين كيف هو.. لا أظنّه سيهتمّ حتّى...

زفرت ثمّ قالت في انزعاج:

– أعرف. لكنّ مهمّة المحامي هي إقناع الموكّل بصالحه.. وأنا وأنت ندرك أنّ عرض الادّعاء يستحقّ التفكير.

سكت جورج لبرهة ثمّ أردف:

– هذه القضيّة.. لست متفائلا بشأنها.

ابتسمت في سخرية، ثمّ قالت باترة الحوار:

– أتركك الآن. لقد وصلت عند هيثم.

أنهت الاتّصال وهي تشعر بالعجز. لو كان المتّهم أيّ شخص آخر، لكانت الآن تستميت في إقناع هيثم وياسمين بالموافقة على العرض. لكنّها ليست قضيّة عاديّة.. إنّها متورّطة أكثر ممّا ينبغي!

حين أفضت إلى قاعة الانتظار، ألفت ياسمين تقف خلف النّافذة الزّجاجيّة، وقد تجمّع الطّاقم الطّبيّ حول سرير هيثم داخل غرفة العناية.

– هل كلّ شيء على ما يرام؟

استدارت ياسمين لتواجهها بابتسامة متعبة ووجه مكدود. قالت في وجل:

- لقد استسلم للنّوم منذ نصف ساعة...

- إذن دعيه يستريح، تعالي.. سأوصلك إلى غرفتك.

مشت برفقتها باتّجاه قسم الولادة. قالت رنيم وهما تسيران بتؤدة، لصعوبة المشي على ياسمين:

- كنت أودّ الحديث إلى هيثم.. عن القضيّة. أنت تعرفين؟

أومأت ياسمين في صمت.

- لم نرد الإثقال عليك بهذا الشّأن، لذلك كنت أخاطب والديه بهذا الصّدد.. لكن الآن، سيحصل استجواب وربّما محاكمة قريبة، وكنت ستعرفين الخبر عاجلا أم آجلا...

زفرت ياسمين في أسى وهمست:

- ما كدت آنس بعودته، حتّى فتحت في وجوهنا أبواب الجحيم! أيّ مصير ينتظرنا؟

لم تحاول رنيم طمأنتها. لم تكن بحوزتها الكلمات اللّازمة. في القديم، كانت ياسمين تعرف كيف تواسيها وتطيّب خاطرها.. لكنّها تخفق دومًا في دور الصّديقة. لم تملك إلّا أن تعانقها بقوّة، تمتصّ ألم روحها وتبثّها تعاطفًا وتضامنًا ودفئًا.

***

تركت ياسمين بعد أن بكت طويلا على كتفها. عادت أدراجها إلى قسم الجراحة. طرقت باب عمر ودلفت. وقفت قبالته، وهي تشعر بالحرج. لم يكن لحضورها أيّ

صبغة رسميّة منذ أعلن رغبته في استلام جورج مهمّة تمثيله في القضيّة. لكنّها رغمًا عنها، تسحبها خطواتها إلى مجاله، مثل قوّة جذب مغناطيسيّة مجهولة المصدر. كان سريره معدّلا في وضعيّة الجلوس، وبين كفيه كتاب ما. قالت محاولة أن تبدو مسترخية رغم توتّرها:

– أحضر لك جورج كتابًا؟

– طلبت من إدارة المستشفى.

– آه.

استعادت في صمت تاريخًا بعيدًا، حين كانت تحضر إليه كتبًا في غرفة مشفى آخر. قالت فجأة بنبرة اعتذار:

– تلك الكتب.. كانت من اختيار ياسمين.

عقد حاجبيه دهشة واستغرابًا. عن أيّ كتب تتحدّث؟ ثمّ استوعب أنّها تشير إلى الكتب التي أحضرتها إليه منذ ستّ سنوات. لماذا تعترف بهذا الآن؟ بدت كأنما تتخلّص من حمل يثقل صدرها. كانت مشوّشة وهي تنتقل من موضوع إلى آخر بلا تناسق:

– أين خطيبتك؟ اسمها آية.. أليس كذلك؟ لم أرها قطّ في الجوار.. ألا تزورك؟

شعرت بضيقه لبرهة، ثمّ قال في اقتضاب:

– لديها أشغالها...

لم يرضها ردّه. ما عدا ذلك، فإنّها قد لمست في سلوك الفتاة وانفعالاتها تعلّقا واضحًا بعمر، لذلك يبدو غيابها غير مبرّر أو متوقّع.

- لقد بدت لكنتها كأنّها.. فلسطينيّة. هل هي كذلك؟

- نعم.

- وهل لها علاقة ما بالمشروع؟

- لا.

ثمّ أضاف في ضيق:
- لماذا أشعر بأنّني في استجواب؟

رفعت كتفيها في براءة وقالت:

- نحن نتحدّث وحسب.

مرّت لحظات من الصّمت، قبل أن تردف بابتسامة:

- هل تذكر، كنّا نتحدّث كثيرًا، هكذا.. في السّابق.

عبس عمر وقد عادت إليه ذكريات يشقيه استرجاعها. قاطعها فجأة بصوت هادئ:

- أستاذة رنيم.. لماذا أنت هنا؟

شعرت بصفعة لا مرئيّة تهوي على صدغها فيرتجّ لها دماغها. حملقت في الأرض بعينين نديّتين. هي نفسها لا تعي ما الذي تفعله هنا في غرفته! ما الذي تريده منه بالضبط؟

لم تلتق موكّلها بعد، ولا رتّبت ملفّات قضيّة سكينة التي تبدأ في الغد، ولا صالحت زوجها الذي غادر مغاضبًا.. لكنّها تقف في غرفة رجل غريب وتستدعي ذكريات عاطفة قديمة.. من طرف واحد! ودّت لو تنشقّ الأرض وتبتلعها. لو تختفي من أمامه كأنّها لم تدخل قطّ.. لكنّ كبرياءها استمرّت تذود عن ذاتها في إباء:

- هل فعلت هذا من أجلها؟

- فعلته من أجل إيماني بالقضية!

قالت في عناد:

- لكنها ليست قضيتك! ما الذي يربطك بتلك الأرض البعيدة وناسها؟ كل شعب دافع على مرّ التاريخ عن أرضه، وردّ المحتلين.. مصر فعلت ضدّ الإنجليز.. والمغرب ضد الفرنسيّين. وستفعل فلسطين أيضا. فما علاقتك أنت؟ انظر.. الاحتلال مرحلة.. ثم يأتي الاستقلال. فلسطين تأخّر احتلالها عن باقي الدّول العربية.. في الوقت الذي كنا فيه نتحرّر، جاء دورهم ليذوقوا من كأس الاحتلال.. تلك سنّة الحياة!

ابتسم في مرارة:

- تفكير عجيب! كأنّ الاحتلال سنّة الحياة وقانونها الذي يتغيّر؟ كأنّ الاحتلال يجيء ويذهب تلقائيّا، فلا نحتاج أن نواجهه ونردّه!

هزّت كتفيها وهي تقول في بساطة:

– أهل البلاد يفعلون!

– لكنّ هذه البلاد مختلفة. إنّها مقدّسة في وجدان كلّ عربي ومسلم!

شعرت بنبرة الاتّهام في صوته. كأنّها لا تنتمي إلى تلك الفئة التي يتحدّث عنها. قالت باندفاع:

– كلّنا نعرف أنّ الفلسطينيّين باعوا أراضيهم لليهود. تنازلوا عنها عن طيب خاطر وقبضوا الثّمن.. فلماذا التّباكي الآن على الأرض المفقودة؟

تنهّد عمر، ثمّ قال:

– قد يكون ذلك حصل، في وقت ما من الماضي البعيد.. قبل النّكبة والنّكسة.. قبل وعد بلفور والمستوطنات. قبل التّهجير القسريّ والمخيّمات! لكنّ البعض يظلّ يؤاخذ الكثرة المضطهَدة، بفعل القلّة المستفيدة! إن كان البعض قد باع، فإنّ الأغلبيّة طردت من مساكنها وأرسلت إلى مصير مجهول! وهذا يا سيّدتي جرم، احتلال.. والاحتلال أنواع.

أصغت إليه في استسلام، كطالب بليد يلقّنه أستاذ التّاريخ درسًا:

– الحماية الفرنسية للمغرب الأقصى، كانت نوعًا من الوصاية الحضارية.. كأنما يقولون نحن سبقناكم بأشواط على طريق المدنية الحديثة، دعونا نعلمكم شيئا من مآثرنا العظيمة، أو هذا على الأقلّ ما يدّعونه. وهناك نوع ثانٍ. انظري إلى أراضي فرنسا التي تقع وراء البحار، تلك الجزر البعيدة والمنعزلة.. المارتينيك والموريشيوس والرييونيون، وغيرها.. ذاك احتلال يعتمد على طمس الهويّة واستبدال أخرى بها.. تغيير الدّين واللغة والانتماء. رغم عودة الفرنسيين إلى ديارهم، فقد هؤلاء استقلالهم وغدوا ولايات فرنسية لا تتّصل جغرافيا بالأرض الأم! غير أنّ ما يحدث في فلسطين هو نوع ثالث، الاحتلال الأكثر وحشية وقذارة.. وله سوابق في التاريخ... أرأيت حين دخل الإنجليز أمريكا وأستراليا؟ أبيد السّكان الأصليون واستوطن الأرض المحتلون حتى لم يعد للثقافة الأولى

وجود! بعد قرون من «اكتشاف» الأراضي المجهولة، أصبحت هويتها ممسوخة.. هذا ما يحصل حين يرتكز الاحتلال على الإبادة والتهجير، استئصال هوية وزرع أخرى واستبدال شعب أصلي بآخر وافد، تهجير المناهضين وتدجين القابلين بالبقاء. وهو ما حصل في الأندلس أيضا.. مع الوقت، لا تعود هناك فلسطين كما لم تعد الأندلس.. تتحوّل المساجد إلى معابد، كما حُوّلت إلى كنائس في إسبانيا.. غير أن المساجد لا تتساوى -وإن كانت كلها بيوت الله التي يجب الذّود عنها- لكن حين يتعلق الأمر بأولى القبلتين وثالث الحرمين الشّريفين ومسرى نبيّنا، فالأمر يتجاوز مجرّد الدّفاع عن أرض تخصّ مجموعة من البشر.. تتحوّل إلى قضية عظيمة تهمّ كل مسلم!

تنهّدت ثم قالت بنبرة متهكمة:

- عجيب أنّك تعلّمني درسًا في كل قضية!

ابتسم وقال بلهجة غامضة:

- ولكنّك لا تتعلمين الدّرس أبدًا.. أم أنّ اختلاف الرؤية بيننا شاسع إلى درجة لا يمكن معها التقاطع؟

توقفت عن التّنفس فجأة وغاص قلبها بعيدًا في صدرها. لم يكن التّقاطع ممكنا.. وهي لم تغفل عن ذلك يومًا. ما حسبته ثانويّا يمكن تجاوزه، يبدو في نظره أوّليًا لا تستقيم الحياة بدونه. اعتذرت بكلمات مقتضبة وفرّت من الغرفة لا تلوي على شيء.

حين صارت في الممرّ بمفردها، تناولت هاتفها واتّصلت بمساعدتها دينا. قالت بلهجة حازمة:

- آية ووالدها محمّد الغزيّ، أريد كل معلومة ممكنة عنهما.. خلال أربع وعشرين ساعة!

-٣١-

ظهر أمامها فجأة كما تعوّد أن يفعل في الآونة الأخيرة. لم تعد تحادثه أو تلهث خلفه مثل السّابق. تعرف مواعيد محاضراته وتفاصيل حياته التي يسكبها في مواقع التّواصل، لكنّها لا تبدي اهتماما. كانت تشعر بفتور وملل من سلوكه البارد. وقد كان عليها أن تذيقه من الكأس التي لطالما سقاها منها.

– أنت هنا اليوم أيضا.

تنهّدت رانيا، وقلبت صفحة كتابها، وهي تتجاهل حضوره قبالتها. ما دام لم يكن لطيفا تجاه سكينة، فهو غير جدير باهتمامها. جلس على المقعد وأطال تأمّله لكتابها.

– ماذا تدرسين؟

رفعت رأسها لتحدجه بنظرة صارمة ثمّ همس في استياء:

– ماذا تريد الآن؟ هيّا.. تكلّم!

شحبت ملامحه واكتست بعلامات الانزعاج. قال في عبوس:

– أشعر أنّك الشّخص الوحيد في العالم الذي يعرف عنّي أكثر ممّا أعرف عن نفسي.. وأنّ السرّ الكئيب الذي يسكن ماضيّ مكشوف أمام عينيك.. لذلك أجدني أبحث عنك كلّ يوم، وتقودني خطواتي إلى المكتبة حيث أتوقّع أن أجدك...

توقّف تدفّق الكلمات على شفتيه. زفر، ثمّ أضاف بنبرة متهكّمة:

– أحتاج من حين إلى آخر أن أتحدّث مع شخص يفهم ما أمرّ به.. ولا أجد أحدًا غيرك تنطبق عليه الشّروط!

رقّ قلبها لحاله، فلانت ملامحها. قالت بهدوء:

– أنا مستاءة، لأنّ صديقاتي يمررن بأوقات عصيبة. وسكينة.. لديها جلسة استماع في الغد. لا أستطيع حتّى أن أركّز على الدّراسة.. سأرافقها غدًا إلى «نانت»...

رفعت بصرها إليه وقالت في رجاء:

– لن ألحّ عليك.. لكنّ حضورك سيشكّل فرقًا. أعلم أنّ بداخلك رغبة في لقائها، لكنّك تقاومها.. كما فعلت يوم جراحتها. فهل ستقاوم أيضا هذه المرّة؟

حدّق فيها في شرود، ثمّ قال بطريقته المستفزّة التي تعوّدتها:

– ألم تيأس صديقتك بعد؟ ليس هناك ما يدعوني إلى رؤيتها. أنا لا أعترف بها أمّا.. لكنّني أودّ أن أعرف مصير سيلين.. هذا كلّ ما في الأمر!

زمجرت في غيظ:

– ستندم!

لوى شفتيه في سخرية وقال:

– أودّ أن أرى كيف سيحصل ذلك!

مرّة أخرى، تركت مقعدها وهي تقول في حدّة:

– لا فائدة.. الجلسة ستكون ظهر الغد، في محكمة الأسرة ب»نانت»...

ابتسمت وهي تسير إلى خارج المكتبة. تعرف الآن أنّ الفكرة ستسكن عقله، ولعلّه يستسلم لفضوله ويحضر الجلسة.. وذلك كلّ ما ترجو.

***

كنّ يتناولن وجبة الإفطار معًا، مجتمعات حول المائدة، وقد سرحت الأفكار في اتّجاهات شتّى. كان ذهن رنيم مشطورًا بين قضيّة هيثم الشائكة، وقضية سكينة المتباعدة جلساتها. كان يجدر بها أن تحرز تقدّما ملموسًا في جلسة اليوم لتختصر المسافات، ولا تضطرّ إلى تكرار الرّحلات إلى نانت. أمّا سكينة، فقد انصبّت خيالاتها كلّها على صغيرتها التي تتوقّع أن تلقاها وجهًا لوجه بعد سنواتٍ من التّباعد القسريّ، في حين كانت رانيا تتساءل إن كان جاسر سيفعلها ويحضر الجلسة!

فجأة، وقفت رنيم وركضت إلى الحمّام وعلى وجهها علامات الغثيان. أفرغت ما في جوفها، ثمّ عادت شاحبة والعرق يتصبّب منها. قالت سكينة في قلق:

- هل أنت بخير؟

هزّت رأسها تطمئنها، رغم ارتجافها ولهاثها. قالت وهي تتمالك أنفاسها:

- لعلّها نزلة معويّة.

تدخّلت رانيا تقول:

- هل يمكنك تحمّل السّفر حتّى نانت وأنت بهذه الحال؟

- والمرافعة بعد ذلك؟

أشارت إليهما في ثقة:

- لا تخشيا شيئا.. سأكون بخير!

تبادلتا نظرة متوجّسة، لكنّ إحداهما لم تحاول ردعها.

لقد ترقّبت سكينة بنفاد صبر وقلّة حيلة أن تحدّد المحكمة تاريخ جلسة الاستماع. لا يمكنها بعد ذلك أن تفوّت الجلسة مهما حصل. ثمّ رنيم شابّة بالغة، ويمكنها الاهتمام بنفسها. فكّرت أنّ تفويت الجلسة ليس خيارًا متاحًا لكلتيهما. لذلك لم تعلّق.

خرجن إثر ذلك وركبن السيّارة حتّى محطّة القطار. حملت سكينة سلّة ملأتها بالفواكه والمقبّلات الخفيفة، ليتسلّين بها خلال رحلة الذّهاب والإياب التي تدوم ساعتين ونصف في كلّ اتّجاه. لكنّ رنيم التي استمرّت انقباضات معدتها، امتنعت عن الأكل بعد ذلك.

دخلن قاعة المحكمة، ولزمن مقاعدهنّ في وجل، بينما أخذ الحاجب ينادي أصحاب القضايا واحدًا تلو الآخر للمثول أمام القاضية. تتالت المرافعات بين طلاق ونفقة وحضانة.. بينما كانت سكينة تسترق النّظر إلى الطّفلة الجالسة في طرف القاعة، إلى جوار راهبة عجوز.

كانت سيلين تقضم أظافرها في توتّر، بينما تتردّد نظراتها بين الحاضرات، بحثًا عن وجه مألوف. ثمّ توقّفت عند سكينة ورنيم. بدت عيناها مشتّتين زائغتين، لا تكاد تستقرّ على ملامحهما حتّى يفرّ بصرها إلى البعيد.. كأنّها تخشى أن يضبطها أحدهم وهي تتطلّع إلى الغريبتين.

أمّا رانيا، فكانت تلتفت إلى مدخل القاعة كلّ فينة وأخرى. مثلما حدّثها حدسها بمجيئه يوم الجراحة، تكاد تجزم بأنّه سيكون هنا اليوم. بدأت رحلة التّفتيش عنه على رصيف محطّة القطار في باريس. إن كان سيحضر، فهو سيركب القطار بالتّأكيد. غير أنّه لم يستقلّ الرّحلة ذاتها. أو على الأقل، لم تلمحه في مجال بصرها. إن لم يكن قد استقلّ قطار التّاسعة والنّصف، فسيكون في القطار التّالي، بعد ساعة واحدة.

– سيلين دينيس.. قضيّة حضانة!

همست رنيم وهي تسبق سكينة نحو منصّة القضاء:

– هيّا، جاء دورنا.

وقفتا على يمين المنصّة، بينما تقدّمت الرّاهبة العجوز وهي تمسك بكفّ سيلين ولا تفلتها إلى الجهة اليسرى. في الأثناء، انغمست القاضية في مطالعة ملفّ القضيّة على عجل. رفعت عينيها أخيرًا ورمقت سكينة في نبرة متعالية:

– أنت الأم؟

– نعم!

– وقد أخذت منك حضانة البنت؟

– نعم، منذ عشر سنوات.

– ما الذي تغيّر منذ ذلك الحين؟

– لقد تعلّمت درس عمري يا سيّدتي القاضية، لن أكون مهملة بعد اليوم.. إطلاقا! لن أنام اللّيل، وسأبيت أحرسها كلّ ساعة. سأكون إلى جوارها في كلّ لحظة، لن أتركها أبدًا!

تدخّلت رنيم وهي تضع على المنضدة ورقة كانت بحوزتها:

- هذه قائمة بالأشخاص الذين بوسعهم الشّهادة بحسن سيرة سكينة واستقامة حياتها.. بينهم زميلات عمل وحرفاء وشريكات سكن.

تناولت القاضية الورقة الممتلئة عن آخرها بأسماء كثيرة وضمّتها إلى أوراقها، ثمّ رفعت بصرها مرّة أخرى:

- أين زوجك؟

- انفصلنا.

- من يعيلك؟

- لقد عملت في السّنوات الماضية، وادّخرت كلّ ما جنيته تقريبا.. لم أكن أصرف الكثير على معيشتي، حتّى أحتفظ بمبلغ مناسب لمستقبل أطفالي.

- أين تسكنين؟

- أعيش في شقّة مشتركة مع بعض الصّديقات. محاميتي، وشقيقتها طالبة بالجامعة. نحن عائلة.

ألقت نظرة على رنيم ورانيا، ثمّ استدارت ناحية الرّاهبة:

- كيف هو حال الطّفلة؟

– إنّها مكتئبة ومنعزلة. منذ جاءت عندنا قبل سنة ونصف، لا تحادث أحدًا تقريبا.. تهتمّ بالأنشطة اليدويّة، وتنفر من الدّراسة. برأيي، إنّها تحتاج محيطا أسريّا مستقرّا حتى تتحسّن حالتها النّفسيّة.

هزّت القاضية رأسها ثمّ خاطبت سيلين:

– صغيرتي، هل تحبّين حياتك في الدّير؟

ببطء، وبحركة قاطعة، هزّت سيلين رأسها في علامة نفي حازمة. تدخّلت الرّاهبة:

– الرّاهبات مشغولات بأعمالهنّ طيلة الوقت.. أصغر الرّاهبات عندنا في العشرينيّات، ومهما حاولت التقرّب من الصّغيرة فإنّها لا تنفتح بسهولة. إنّها لا تتكلّم تقريبا.

ألقت القاضية نظرة حانية على الفتاة وقالت بابتسامة متعاطفة:

– هل تحبّين أن تنتقلي للعيش مع هؤلاء الفتيات؟

تلألأت في عينيها عبرة حبيسة وومضتا بتعبير غريب وهي تومئ بعلامة الإيجاب. نقلت القاضية بصرها بين الأمّ التي تبدو على مشارف الانهيار، والصّغيرة الهشّة التي تكاد تنكسر، ثمّ قالت:

– الاستماع إلى الشّهود والنّطق بالحكم خلال أسبوعين.

قاطعتها سكينة في رجاء:

– هل يمكنني أن أعانقها على الأقلّ؟

شرحت رنيم:

– سكينة ممنوعة من الاقتراب من طفلتها أكثر من مائة متر بحكم قضائيّ عمره عشر سنوات. وجودهما في نفس الغرفة يعتبر معجزة بالنّسبة إليها.

أشارت القاضية في تفهّم:

– تفضّلي.

نزلت سكينة على ركبتيها وفتحت ذراعيها، فخطت الطّفلة نحوها في وجل أوّلا، ثمّ بخطوات ثابتة ومتيقّنة، حتّى استكانت على صدرها. أخذت سكينة تمسح على شعرها وتذرف عبرات حرّى، وتهمس في أذنيها بصوت يقطّع نياط القلوب:

– يا صغيرتي.. يا حلوتي.. لقد كبرت. صرت عروسا جميلة.. يا حمامتي الوديعة.. هل تعلمين كم أحبّك.. هل تعلمين كم اشتقت إليك؟

لبضع دقائق، انحبست أنفاس كلّ من في القاعة، وهم يتابعون مشهد لقاء الأمّ بابنتها بعد غياب دام عقدًا كاملا، شابت خلاله الأمّ الشابّة، وغدت فيه الرّضيعة فتاة يافعة على أبواب المراهقة. تمتمت البنت في تردّد وحذر، كأنّها تتذوّق الكلمة على لسانها:

– أمّي؟

– نعم يا روحي.. أنا أمّك!

ردّدت من جديد، في يقين هذه المرّة:

– أمّي!

– يا حياة أمّك، يا كلّ دنيا أمّك!

هتفت رنيم منتهزة لحظة التأثّر العامّة:

– سيّدتي الرّئيسة.. نظرًا لظروف الفتاة العصيبة وحالتها النّفسيّة المتردّية، فإنّني أقترح على جنابكم التّعجيل بالنّطق بالحكم.. وذلك لمصلحة الصّغيرة. إسناد حضانتها إلى شخص يهتمّ لأمرها من صميم الفؤاد، وخاصّة أنّها من لحمها ودمها، من أهداف محكمة الأسرة الأولى.. ولا أرى داعيًا لإطالة الانتظار الذي لا معنى ولا فائدة منه!

تنهّدت القاضية وبدا عليها التّفكير لبرهة، نقلت بصرها بين الرّاهبة المتعبة، الفتاة الذابلة والأمّ الدّامعة، ثمّ تحرّكت ذراعها في حركة بطيئة.. توقّفت لثوانٍ تزن قرارها بعين العقل ثمّ تصغي لصوت العاطفة، لتضرب أخيرًا بمطرقتها على الطّاولة معلنة الحكم:

– أسندت الحضانة إلى الأم، سكينة البيطار!

تعالى صراخ رانيا في جذل غير مصدّقة، وقفزت من مقعدها لتحتضن سكينة وسيلين اللّتين لم ينفصل عناقهما بعد، بينما هتفت رنيم التي لم تعتقد أنّ محاولتها اليائسة قد تجد تجاوبًا عند القاضية بتلك البساطة:

– شكرًا لك سيّدتي الرّئيسة! ليس في الكلمات ما يكفي لشكرك على جمعك الأمّ بابنتها بعد انتظار دام عشر سنوات!

ثمّ سارعت تنضمّ إليهنّ في عناق جماعيّ اختلطت فيه الضحكات بالعبرات.

غادرن قاعة المحكمة، وسيلين لا تفارق حضن والدتها، في حين تمسك رانيا بكفّها الأخرى مثل شقيقة كبرى. تأخّرت عنهنّ رنيم بضع خطوات حتّى تخاطب الرّاهبة. قالت في امتنان:

– شكرًا لتعاونك، ولاهتمامكنّ بسيلين في الفترة الماضية. فتاة وحيدة وفاقدة للسّند العائليّ مثلها، كان يمكن أن تضيع عن الجادّة بسهولة.

تنهّدت الرّاهبة وقالت:

– لقد رأيت مدى تأثّرها بعد زيارتك السّابقة. وأدركت أنّها تريد هذه العائلة. لذلك فعلت ما بوسعي حتّى أحتفظ بها في انتظار جلسة اليوم.

– إذن، سأمرّ بعد قليل إلى الدّير لتجمع سيلين حاجياتها...

ضحكت الرّاهبة وقالت:

– لقد جمعت سيلين حاجياتها كلّها في حقيبة وأحضرتها. لقد خفت عليها هذا الصّباح من حماسها.. أخبرتها بأنّ الأمر غير مضمون بعد، وأنّها لن تغادر الدّير اليوم.. لكنّها أصرّت! من ألطاف الله أنّ أمنيتها لم تخب!

ابتسمت رنيم في سرور.. ثمّ تابعت بعينيها رانيا وهي تنفصل عن سكينة وابنتها فجأة وتركض في ممرّ المحكمة. بحثت في توتّر في مجال رؤيتها عمّا تتبعه رانيا.. حتّى حطّت نظراتها على شابّ يحثّ الخطى مبتعدًا، ويتلفّت في حذر.

كزافيي!

وقفت رانيا أمامه وهي تلهث، وقالت بظفر:

– لقد عرفت أنّك ستأتي! هل فوّت الجلسة؟

نظر إليها في انزعاج، وقد كشف أمره. قال في ضيق:

– لقد رأيت كلّ شيء.. أنا سعيد من أجل سيلين. لم أكن أتمنّى لها أن تكبر في الدّير...

قالت في رجاء:

– بما أنّك هنا.. لماذا لا تتحدّث إلى سكينة؟

اقتربت رنيم على عجل، وقالت في اهتمام:

– أنت كزافيي، أليس كذلك؟

اكتست ملامحه مسحة عدائيّة وهو يحدّق فيها وقال في نفور:

– من تكونين أنت؟

– أنا شقيقة رانيا.. وصديقة سكينة.

– آه، أنت المحامية.. لقد رأيتك بالدّاخل.

– لماذا لا نجلس جميعا ونتناول الغداء؟

غمغم في ضيق:

– يجب أن ألحق القطار...

– هناك رحلة على رأس كلّ ساعة، إذا فوّتّ رحلة، تلحق بالتّالية. ما دمنا جميعا هنا.. أراها فرصة سانحة.

ودون أن تنتظر، التفتت وراءها ونادت:

– سيلين تعالي.. تريدين لقاء شقيقك؟

تسمّرت سكينة في صدمة، وهي ترمق كزافيي بنظرات مهتزّة. كان حضور الصّغيرة بين ذراعيها قد استغرقها حتّى أنّها لم تلتفت إلى غياب الأختين. استفاقت حين تركت سيلين حضنها وتقدّمت إلى نصف الدّائرة التي وقف على حدودها كلّ من رانيا ورنيم وكزافيي. قالت البنت فجأة:

– لقد رأيتك. أنت تجيء للدّير كثيراً.

امتقع وجهه وقد أحيط به من كلّ جانب. فشرحت رنيم:

– أنتما أخوان شقيقان.. لكنّ كزافيي يعيش مع عائلة أخرى الآن.

رفع كزافيي بصره ليواجه نظرات سكينة المتضرّعة، وقال بقسوة:

– لديّ أمّ واحدة!

قالت سكينة في انكسار:

– لا بأس يا صغيري، لا بأس.

– لستُ صغيرك!

– أنت محقّ، أنا آسفة. من حقّك أن ترفضني.. لكن كم شقيقة لديك؟

أطبق شفتيه ولم يحر جوابًا. لم يعرف معنى الأخوّة. لقد نشأ وحيدًا بلا أشقّاء. وحتّى لو أنكر وجود تلك الأمّ الغريبة ولفظها، فإنّه يشعر بتعلّق لا إراديّ بتلك الصّغيرة البائسة اليتيمة! لعلّ اشتراكهما في المصير ووحدة مأساتهما تقرّبهما بشكل غريزيّ.

على حين غفلة منه، اقتربت سيلين وأمسكت كفّه وأخذت تشدّه وراءها. قالت بصوتها اللّطيف السّاحر:

– هيّا بنا.

لم تكن تتكلّم كثيرًا. لكنّ حروفها القليلة غالبًا ما تكون حاسمة وحازمة. وقد آتت أكلها سريعًا، إذ استسلم لذراعها تقوده، بل تقودهم جميعا وهي تسبق خطواتهم خارج بناء المحكمة. استلمت رنيم الحقيبة من الرّاهبة، ثمّ انضمّت إلى جمعهم حول مائدة مطعم صغير يقع قبالة المبنى الإداريّ. أشارت رانيا إلى النّادل، وطلبت طبقي بيتزا عائليّة للمشاركة.

هتفت سكينة وهي تخترق الصّمت المخيّم على الجلسة بنبرة متحمّسة:

– عندي مفاجأة لكما!

أخرجت ألبوم صور قديمًا لطالما ناجت أطياف ساكنيه في وحدتها في جوف اللّيل. لكنّ مشاركة ذكرياتها مع تلك الوجوه الحبيبة كانت أمنية بعيدة المنال، والآن هي ترضية

أبهى ممّا يتّسع له صدرها. وضعت الألبوم على المائدة في انتظار وصول البيتزا، وأخذت تتصفّح الصّور على مهلٍ وتشير إلى المشاهد التي تحفظها عن ظهر قلب وتتحدّث:

- هذا أنت يا جاسر، حين كنت في سنّ الثالثة.. هذه الدرّاجة الحمراء التي كنت تركبها في فناء البيت.. وهذه أنت يا ميار، بعد يومين من ولادتك. اشترى لك والدك هذا السّوار الذّهبيّ، فرحًا بمجيئك إلى الدّنيا...

سألت سيلين في دهشة:

- ميار؟

- اسمك هو ميار يا حبيبتي.. معناه بالعربيّة هو «جالبة الخير»، وبالفارسيّة «ضوء القمر».. وبالتّركيّة «وردة الجنّة»!

فغرت الطّفلة فاها بإعجاب، فاستطردت سكينة تقول:

- أمّا جاسر، فهو الرّجل الشّجاع!

كان جاسر يتابع كلماتها متظاهرًا بعدم الاهتمام. يجلس باسترخاء على مقعده، متّكئا إلى الخلف، عاقدًا ذراعيه أمام صدره، ويلقي من حين إلى آخر نظرة ممتعضة على الصّور التي تشرح سكينة تفاصيلها.. حتّى قالت وقال مال صوتها إلى البكاء:

- وهذا رامز.. شقيقكما.. أسأل الله أن يغفر لي، ويجمعنا به في الجنّة!

ران صمت عميق على المجموعة، واعتلى الضّيق ملامح كزافيي، بينما كانت سيلين تحدّق في ملامحه باهتمام، ثمّ هتفت:

- إنّه يشبهني!

ابتسمت سكينة وهي تشدّ على كتفها بيسراها وأومأت موافقة:

- أنت ورامز تشبهانني.. وجاسر يشبه والدكما. انظري...

فتحت صفحة ألبوم تحوي صورة لطليقها وجاسر يجلس بينهما. فتطلّع كزافيي بحذر لينظر إلى وجه الرّجل الذي تدّعي أنّه شبيهه. توقّفت عيناه طويلا على الشّابّ الثلاثينيّ الذي كانه والده زمن التقاط الصّورة. حدّق في الوجنتين البارزتين والأنف الطّويل الذي يحاكي أنفه، وإلى الشّارب الخفيف الذي يعلو شفتين غليظتين. انتبه إلى سكينة التي كانت ترمقه خفية وابتسامة حانية تزيّن مبسمها، فلملم نظراته وأشاح بعيدًا.

جاء النّادل حاملا البيتزا، فأشارت إليه رانيا وهي تناوله هاتفها:

- هلّا التقطت لنا صورة جماعيّة؟

استدار الجميع إلى العدسة بوجوه مشرقة، بينما حافظ كزافيي على جموده. شعر بضربة شديدةٍ تصيب ساقه تحت الطّاولة، فتأوّه بخفوت، وهو يبحث عن الفاعل بنظرات زائغة. اصطدمت عيناه بنظرة رانيا النّاريّة. كانت تتوعّده في صمت. حدجها في استياء، فأشارت إليه أن يبتسم! هزّ كتفيه استهانة وعاد إلى عزلته.

- عائلة مميّزة!

قال النّادل وهو يعيد إلى رانيا هاتفها، فابتسمت شاكرة، ثمّ قالت لسكينة:

- سأطبعها حين نصل إلى باريس.. هكذا يكتمل ألبوم صورك!

بادلتها سكينة نظرة امتنان، وتمنّت في سرّها أن يلين جاسر ويعود ليكون واحدًا من أفراد عائلتها حقًّا.

***

تركتهنّ عند مدخل المبنى وقالت:

- أحتاج المرور إلى الصّيدليّة.. سآتي حالا.

ثمّ هرولت إلى رأس الشّارع. كانت معدتها قد هدأت، لكنّ هواجسها لم تخفت. غابت في الدّاخل لخمس دقائق، ثم رجعت إلى الشقّة.

في المطبخ، كانت سكينة تنشط في همّة، وإلى جوارها الطّاهيتان المتدرّبتان، رانيا وميار. ابتسمت وهي ترمق ثلاثتهنّ بنظرة راضية. كنّ يبدون مثل عائلة حقيقيّة. تركت حقيبتها، ودلفت على الفور إلى الحمّام.

- أين رنيم؟

هتفت سكينة، حين تأخّر ظهورها.

- العشاء جاهز!

كانت قد غابت في الحمّام منذ نصف ساعة أو تزيد. تقف أمام المرآة وتحدّق في ملامحها المجهدة بنظرات زائغة.. ثمّ تعود عيناها في صدمة، إلى اختبار الحمل السّاكن قرب المغسلة. كان ينبغي للإشارة أن تختفي بعد بضع دقائق، لتعلن فشل الاختبار. لكنّها باقية، واضحة وصريحة بما لا يدع مجالًا للشكّ!

- رنيم، أنت حامل! تهانينا!

قالت لنفسها بسخرية لاذعة. يبدو هذا مثل كابوس لعين. لم تصدّق أنّ هذا ممكن أصلا، فهي لم تهمل حبوب منع الحمل قطّ. لقد كانت مطمئنّة لاتّخاذها الاحتياطات اللّازمة، ولم يخطر ببالها أنّ الانزلاق إلى الهاوية محتمل. رمت الاختبار في سلّة المهملات، ثمّ انهمكت تفرك كفّيها ووجهها، كأنّما تريد الانتباه من الحلم المزعج.

-٣٢-

لم تكن قصص الجنيّات تتطرّق إلى حياة الأميرة بعد الزّواج. لا أحد يتحدّث عن خلافاتها مع الأمير، رفضها للإنجاب، أو تقلّباتها المزاجيّة. تبدأ الحياة الحقيقيّة من حيث تنتهي قصّة الأميرة في الحكاية!

لم تقصد المكتب في الصّباح التّالي. لم يكحّل النّوم جفنيها حتّى الفجر، وكانت آلام الرّأس رفيقتها حين صحت نحو التّاسعة. ارتدت ثيابها على عجل وخرجت إلى المشفى دون أن تحادث أحدًا. جلست في قاعة الانتظار من قسم العيادات الخارجيّة الخاصّة بالنّساء والولادة. ترمق بنظرات مرتعبة البطون المنتفخة التي تحيط بها، وتسير صاحباتها مثل السّرطانات العرجاء!

حين جاء دورها، تثاقلت في الوقوف، وكأنّ بطنها يسحبها إلى الأرض بعبء خياليّ. ثمّ استسلمت لمصيرها، ودخلت العيادة. استقبلتها طبيبة ذات اسم آسيويّ، بعينين ضيّقتين ووجه مجعّد. ابتسمت وهي تفحص بطنها، ثمّ أخذت تستمع إلى نبضات الجنين. كانت ملامحها تكتسي جدّيّة بالغة وهي تدقّق حتّى كاد حاجباها الرّقيقان يلتقيان.

سألت رنيم في توجّس:

- ما الأمر؟

- كلّ الخير يا عزيزتي.. كلّ الخير. لكنّني أريد التأكّد قبل ذلك.. تفضّلي إلى غرفة التّصوير بالموجات فوق الصّوتية!

على الشّاشة، ظهرت صورة تكشف عن دواخل رحمها. لم تكن تستوعب شيئا ممّا تراه، لكنّها تابعت حركات الطّبيبة في اهتمام. شعرت بجهاز الرّصد البارد يضغط بقوّة على بطنها، بينما سمعت صوت الطّبيبة تقول:

- هذا الرّأس...

حدّقت في الشّكل الكرويّ الذي يحيط به سواد كثيف وخيوط متداخلة.

- وهذا الرّأس الثاني!

نقلت عينيها من الشّاشة نحو وجه الطّبيبة في صدمة. يا للهول!

- تهانينا عزيزتي.. أنت حامل بتوأم. مدّة الحمل التقريبيّة، سبعة أسابيع!

غادرت العيادة، وهي تكاد تفقد توازنها. لقد دخلت بنيّة واحدة. أن تستفسر عن سبل آمنة للتخلّص من الجنين. لكنّ الصّدمة ألجمتها وأخرست لسانها. توأم! إنّ قتل جنين واحد كان حملًا يرزح تحته ضميرها فيسحقه، فكيف باثنين؟

عبرت المسار الفاصل بين العيادات الخارجيّة وقسم التّنويم. قادتها خطواتها نحو غرفة ياسمين، لكنّها لم تكن هناك. خمّنت على الفور أنّها ستكون إلى جوار طفلها.

لوّحت لها من وراء الحاجز الزّجاجيّ لغرفة الحضانة. كانت تحمل عزّ الدّين برفق وتهدهده، بعد أن تناول وجبته الصّباحيّة. ترقّبت حتّى انتهت من إشباع غريزة أمومتها وحاجته إلى الحنان، ثمّ جلستا معا في قاعة الانتظار. قالت رنيم وهي تخفي توتّرها:

- العناية بالأطفال أمر صعب!

تنهّدت ياسمين ثمّ ابتسمت:

– لكنّه تعب حلو! كلّ ثانية أمضيها إلى جواره لها طعم الشّهد.. كأنّها لحظات سُرقت من الجنّة!

حدّقت فيها رنيم في شكّ. إنّها تبدو منهكة ومستنزفة القوى. مازال جرح القيصريّة يجعلها تنثني ألمًا، لكنّها تبتسم وتشعّ قسماتها بشرًا، كلّما ورد ذكر وليدها على لسانها.

لكنّها لا تشعر بالأمر ذاته تجاه الكائن الذي بات يستوطن جوفها. بل الكائنين الاثنين! لا يمكنها أن تضمر غير الخوف والسّخط والغيظ! لم يكن الوقت مناسبًا لتصبح أمّا. لقد تشاجرت وشهاب لهذا السّبب بالذّات. وهي لا ترى انقلاب الموازين واردًا أو ممكنًا. لم تتغيّر ظروفها قطّ. مازالت العقبات ذاتها قائمة، لذلك.. لذلك لا تستطيع أن تحبّ الجنينين اللذين شرعا يتكوّنان في رحمها. سألت في حذر:

– هل أحببته منذ اليوم الأوّل؟ حين عرفت أنّك تحملينه في بطنك؟

ابتسمت ياسمين في شغف:

– لقد كانت لحظة ساحرة.. لحظة أيقنت أنّنا سنصبح «عائلة»! أنا وهيثم، كنّا سعيدين قبل ذلك.. لكنّ طعم الحياة اختلف، بوجود جنين نصفه منّي والنّصف الآخر من أبيه. بشكل ما، هذا الصّغير هو نتاج انصهار أحدنا في الآخر...

ابتسمت رنيم في حيرة. ياسمين العقلانيّة حين يتعلّق الأمر بالزّواج، تحوّلت إلى حالمة رومانسيّة في ما يخصّ الأطفال!

سرحت لبرهة، تتمثّل حياتها في وجود طفل من شهاب. انتفاخ البطن، وآلام الولادة، ثمّ ترهّل جسمها نتيجة الحمل والرّضاعة والهالات السّوداء من أثر السّهر، ورائحة

الحفّاظ! انتابها إحساس بالدّوار. إنّها لا تستطيع الوصول إلى بقعة الضّوء التي يفترض بها أن تظهر في نهاية النّفق المظلم. إنّها لا ترى سوى عتمة النّفق!

تنهّدت ياسمين، فسألت رنيم في قلق:

– ما الأمر؟

– أحمل همّ الأيّام المقبلة.. غدًا يجب أن أترك غرفتي في قسم الولادة. لكن أمام عزّ الدّين أسبوع بعد.. وهيثم...

– آه!

لم يكن وضع هيثم مستقرّا بعد. كلّما سألت عنه، قيل لها أنّه نائم! تلك النّومة التي تستمرّ منذ يومين توحي بشيء آخر. لكنّها لا ترغب في بعثرة اطمئنان ياسمين الهشّ. لا تريد أن تكون سببًا في تعكير صفوها. إن كان قد استيقظ أوّل أمس، فقد يستيقظ في أيّ وقت آخر.. عليها الانتظار بعد.

كان منزل زهور واقعًا في الضّاحية الشّمالية، والمشفى في الضّاحية الجنوبيّة. لا شكّ أنّ الرّحلة اليوميّة لعيادة ولدها وزوجها ستستغرق منها ساعة أو تزيد. وهي لا تستطيع بعد أن تتنقّل بمفردها، تحتاج إلى الرّفقة. إنّ في الأمر مشقّة لا محالة.

– لماذا لا تبقين في شقّة الشّركة؟ إنّها قريبة من هنا.

– الشّركة؟

– هل لديك نسخة من مفاتيح هيثم؟ سأهتمّ بترتيب المكان من أجلك.

- خالتي زهور معها بالتّأكيد.. هيثم يحتفظ بنسخة في منزل والديه، حتّى إذا أضاع مفاتيحه أو نسيها.. كان لديه بديل.

- جميل.. سأتّصل بميساء.

تعالى رنين هاتفها في تلك اللّحظة، فاعتذرت من ياسمين لتردّ. كانت مساعدتها. أصغت إلى تقريرها الذي طلبته بخصوص آية وعائلتها، ثمّ قالت على عجل:

- لديّ عمل الآن.. سأراك لاحقًا.

***

اقتحمت غرفة عمر وهي تلهث، مثل عاصفة هوجاء. هتفت دون مقدّمات:

- لقد اختفت!

حدّق فيها في عدم فهم.

- آية ووالدها.. اختفيا! لا أثر لهما في باريس، بل في فرنسا كلّها. البيت خاوٍ على عروشه.. ولا أحد من الجيران يعرف إلى أين مضيا. حتّى أنّ والدها ترك وظيفته بلا مبرّر.

أصغى عمر في صمت، ولم يعقّب. فأردفت رنيم في شكّ:

- لا تبدو متفاجئا!

قال بهدوء:

– لماذا تنبشين وراءهما؟

– لأنني لا أشعر بالارتياح.. ما الذي يجعلهما يختفيان بعد الحادثة تمامًا؟

– لكلّ أسبابه!

تمهّلت لبرهة ثمّ قالت بحزم:

– هذا يثبت علاقتهما بالقضيّة!

عاجلها عمر بلهجة صارمة:

– لا أريد منك إقحامهما في الأمر! لا تأتي على ذكرهما أبدًا.. هل سمعتِ؟

لكنّها ألقت في تحدّ:

– أنت لا تفهم. السّبل كلّها مسدودة. إن كان لإثارة الشكّ تجاههما نفع في القضيّة فلن أتردّد في توجيه اللّوم إليهما! أيّ مجال للشكّ في طرف ثالث يعدّ فرصة لا تفوّت!

زفر في ضيق، ثمّ تريّث قبل أن يقول في حذر:

– ماذا لو كان هناك مجال لإلقاء اللّوم على طرف ثالث، دون أن يوجّه الاتّهام إليهما؟

– ماذا تعني؟

– آية، في زيارتها الأخيرة، قبل رحيلها.. ذكرت بضعة أسماء. قالت أنّ بوسعي —إذا ما اضطررت إلى الاعتراف— أن أنحّي جزءًا من اللّوم عن نفسي.

– أيّ أسماء؟

تنهّد، ثمّ قال:

– عائلة آية، ذات صلات عريقة بالمقاومة.. لكنّ والدها هاجر حين كانت في سنّ صغيرة. لقد أراد لها حياة طبيعيّة ومستقرّة.. وهذا ما يأمله كلّ من يرزقه الله بالذرّية. يرجو لهم حياة أفضل من التي عاشها.. لكنّها نشأت على حبّ فلسطين وتعلّق بتاريخها، وتطلّع للعودة إليها.

أعلنت رنيم في ظفر:

– إذن هي السّبب في كلّ ما حصل! لم أكن مخطئة!

– بل أنت مخطئة تمامًا. لقد نما وعيي بالقضيّة الفلسطينيّة بفضلها، هذا صحيح. ولقد سافرت إلى سوريا بتوصية من خالها، وهذا أيضا صحيح. لكنّني لا أُتّهم بهذا.. بل بسبب نشاط الشّركة! المشروع الذي أثار حفيظة الصّهاينة، لم يشر به عليّ أحد! لقد فكرت وخطّطت، ثمّ شاركت هيثم أفكاري.. وتعاونّا على الإنجاز في معزل عن آية وعائلتها. لم يكن لأيّ منهم معرفة مباشرة أو غير مباشرة بنشاط الشّركة! لقد سافرت إلى غزّة، وهناك أنشأت علاقات تخصّني.. تواصلت بشكل مباشر مع مهندسي المقاومة، وهي لم تكن تعلم بما فعلت هناك ومن قابلت وما أسفرت عنه الزّيارة!

صمت لبرهة، ثمّ واصل أمام وجوم رنيم:

– لكنّها –رغم ذلك– كانت تشعر بالمسؤوليّة تجاهي.. لأنّها فكّرت مثلك. أنّني لم أكن لأتورّط لولا معرفتي بها.. لكنّها لا تدرك أنّني كنت سأبقى بلا هدف، لولا ظهورها في حياتي! أنا لا أندم على شيءٍ ممّا فعلت.. ولا أحسب هيثم يفعل، لولا أنّ مصاب عائلته به عظيم.

أخذ نفسًا وكتم عبرة ثم استطرد:

– لقد جاءت آية تمدّ يد المساعدة، وهي غير مجبرة. لكنّها لا تملك من أمرها شيئا. خشيت أن يلحقها أذى، وهي فتاة شابّة، لا يليق بها ارتياد المعتقلات ودخول التّحقيقات، وهي بريئة أساسًا. لذلك طلبت منها الرّحيل. لكنّها اتّصلت بخالها، وطلبت دعمه.. وهو لم يقصّر. كلاهما قام بواجبه وأكثر.

ثمّ رفع كفّه كأنّما يؤدّي القسم وقال بلهجة ساخرة:

– لقد فعلت ما فعلت عن وعي وقناعة تامّين.. وأنا في كامل قواي العقليّة!

ران الصّمت على الغرفة حين فرغ من شرحه. سألت رنيم بعد دقيقتين استوعبت خلالهما مراده:

– هذه الأسماء، ما نفعها؟

– إذا اضطررت إلى الاعتراف.. أقول أنّه قد غُرّر بي، وأنّني التقيت بتلك الشّخصيّات، فعرضوا عليّ العمل معهم وتزويدهم بمعدّات التجسّس.

– وهل ستفعل؟

ابتسم في تهكّم وقال:

- هل جاء أوان الاعتراف؟

ازدردت لعابها في توتّر. لو أنّ هيثم يعترف بأنّ عمر هو المسؤول الأوّل في المشروع، سيحصل على صفقة مع المدّعي العام. خمس سنوات نافذة. لكنّ عمر سيُحشر في الزّاوية. حتّى لو اعترف بتلك القائمة الاسميّة، فلن يسفر الأمر إلّا عن تخفيف طفيف للحكم. عشرون عامًا، بدل المؤبّد ربّما!

والآن تشعر أنّ الوقت ينفد منها، تتناثر حبّات الرّمل في ساعتها، والحلول تتناقص باستمرار.

***

سحبت رنيم قدميها عبر ممرّات المشفى بلا حماس. باتت تتقن الفرار أكثر من المواجهة. وقفت تراجع أفكارها عند مدخل قسم العناية دون أن تجرؤ على الولوج. هناك الكثير لتفكّر به.. حتّى لا تعود إلى سرّها الصّغير الذي تخفيه عن الجميع حتّى اللّحظة.

كانت قد عادت إلى المشفى بعد أن تأكّدت من جاهزيّة الشقّة لاستقبال ياسمين ووالدتها. أمضت ساعات طويلة في التبضّع والتّزويق منذ الصّباح. تنفق وقتها في نشاط يشغلها عن الأزمات العصيبة التي لا تجد لها مصرفًا. لم تكن ياسمين في غرفتها حين وصولها، فمضت تقتفي أثرها. توقّفت عند غرفة العناية، لكنّها لم تدخل على الفور.

على امتداد الطّريق من الشقّة، كانت تحادث نفسها بأنّها بحاجة إلى الفضفضة. فكّرت بأنّها إن ألفت ياسمين بمفردها، فستفضي إليها بمكنونات صدرها. تخيّلت جلستهما على مقاعد الانتظار، تتسامران مثل الأيّام الخوالي، مع اختلاف الإطار المكاني!

لمحت طبيبًا يغادر غرفة هيثم، فاستوقفته للسّؤال:

- كيف أصبح هيثم الأندلسي اليوم؟

هزّ الطّبيب رأسه بابتسامة وقال:

- سيكون بخير.. لقد نام للتّو. لا يريد إزعاجًا. عن إذنك الآن.

طالعت ساعتها في ارتباك. تفصلها ساعتان عن انتهاء مهلة المدّعي العام. استدارت على عقبيها فورًا وهرولت في اتّجاه غرفة عمر. غابت في الدّاخل لدقيقتين ثمّ خرجت مفزوعة. تناولت هاتفها واتّصلت بجورج. قالت في انفعال:

- اتّصل بمكتب النّيابة واقبل عرضهم!

- ماذا تقولين؟

بدا جورج مشوّشا وغير مستوعب. فأضافت في استماتة:

- يجب أن تساوم على خمس سنوات فقط، مثل العرض الذي جاء لهيثم. أقنعهم أنّ عمر سيدلي بمعلومات وافرة عن جهات الاتّصال بالمنظّمة الإرهابيّة!

هتف جورج في دهشة:

- هل أنت واثقة؟ هل تعلمين أنّك تخاطرين بمصير موكّلك؟

- لا تقلق.. إنّها مخاطرة محسوبة.

زفر في توتّر ثمّ قال:

– ماذا عن عمر؟ هل وافق على هذا؟

قالت على عجل:

– ليس بعد.. لكنّه سيفعل.

أضافت أمام تردّده:

– لم يبق الكثير من الوقت. سأشرح لك لاحقًا. إذا أنهيت المساومة، اتّصل بي على الفور!

قال في استسلام:

– حسنا.

أخذت رنيم نفسًا عميقًا، ثمّ خطت إلى قسم العناية المركّزة.

-٣٣-

حين رجعت ميساء من رحلتها إلى «ليل»، حكت تفاصيل ما رأت في الشقّة المتروكة منذ أسبوع، وأناملها ترتجف. كانت قد سافرت في وقت مبكّر رفقة والدها إلى شقّة ياسمين وهيثم لإحضار ملابسهما، وحاجيات عزّ الدّين، مع اقتراب مغادرة ياسمين للمشفى.

لم يكن باب الشّقّة محكم الإغلاق. في البداية حسبت ياسمين قد غفلت عن ذلك إبّان رحيلها المستعجل.. لكنّها أدركت ما حصل ما إن خطت إلى الدّاخل وأضاءت الأنوار. كان متاع الشقة مبعثرًا في الأرجاء، وأثاثها منقلبًا رأسًا على عقب. بدا أنّ يدًا عابثة قد مرّت من هناك، وتركت المكان ركامًا لا يميّز بعضه من بعض.

حدّقت فاغرة فاها، وقد شلّتها الصّدمة. ثمّ أخذت تجمع ما تصل إليه يدها من ثياب وهي تنتحب بلا توقّف. عبّأت ما حسبته ضروريّا من المتاع في حقيبتي سفر، ثمّ جذبت الدفّة وغادرت لا تلوي على شيء.

أسرّت في تردّد إلى ياسمين بما شهدته بأمّ عينيها، فلحظت شحوبها المفاجئ. سارت بمحاذاتها في صمت باتّجاه قسم الحضانة، وقد شغلتهما الأفكار والهواجس. كان عزّ الدّين قد غدا في صحّة أوفر، لكنّهم يحتفظون به تحت الملاحظة ما دام لم يشرع وزنه في الزّيادة.

وهما تعبران باتّجاه غرفة هيثم، أبصرتا رنيم تقف في شرود في الممرّ. بدت ساهمة وغائبة في بوتقة أفكارها هي الأخرى. بادرتها ميساء على الفور:

- هل من جديد؟

زوت رنيم ما بين حاجبيها وهي مازالت تحاول استيعاب كلمات الطّبيب الغريبة:

- ما يزال نائما...

إنّه ينام منذ يومين. الكلّ يتحدّث عن غيبوبة جديدة ممكنة، لكنّ الطّبيب يبدو مطمئنّا أكثر ممّا ينبغي. سألت بدورها:

- هل عزّ الدّين بخير؟

- إنّه يتحسّن باستمرار.

أومأت ياسمين مطمئنة، فأردفت ميساء:

- لكن هناك شيئا آخر...

ثمّ سردت على مسامعها تفاصيل ما رأته في الشقة. أصغت رنيم في اهتمام وقلق متزايد، بينما تراءى الذّهول مسيطرًا على ملامح ياسمين، وقد زاغت عيناها محدّقة في الفراغ. لقد ظنّت أسوأ مخاوفها يقف إزاءها، فإذا بها تقف على عظيم جهلها بحقيقة الأمر.

بينما تقف ثلاثتهنّ في الممرّ، يتبادلن نظرات القلق والتوتّر، استرعى انتباه رنيم مشهد ممرّضة تركض في اتّجاه غرفة العناية وقد بدا عليها الارتباك. ما إن انفرجت دفّتا الباب حتّى سمعت رنيم الرّنين الآليّ الذي تصدره الآلات المتّصلة بهيثم.

هرولن في ذعر في اتّجاه الغرفة. تذكّرت رنيم كلمات الطّبيب المريبة منذ حين، بينما بلغ نداء الممرّضة للطاقم الطّبيّ لتدخّل عاجل. وقفت في تردّد، تنقل بصرها بين الغرفة ووجه ياسمين الشّاحب، وبين الممرّ الذي اختفى منه الطّبيب الذي تحدّثت إليه. انتابها هلع مفاجئ ودوّت صافرات الإنذار في رأسها، فتركت صاحبتيها وانطلقت تركض إثر الطّبيب.

حين صارت في الممرّ الخالي، أدركت أنّها فقدت أثره، لكنّ حدسها أنبأها بوجهته. حثّت الخطى وهي تدعو أن تصل قبل فوات الأوان. لم تكن قد أشرفت على قسم الجراحة بعد، حين لمحت الطّبيب ذاته وهو يهرول مبتعدًا عن غرفة عمر. هتفت برجل الأمن عند الباب:

- اقبض عليه! ذلك الطّبيب.. إنّه مدّع!

حدجها رجل الأمن في استغراب ونقل بصره بينها والمنعطف الذي اختفى منه الطّبيب في حيرة، ولم يبرح موقعه. خلال ثوانٍ أدركت أنّ الرّجل قد لاذ بالفرار لا محالة. قالت بسرعة وهي تخرج بطاقتها:

- أحتاج إلى رؤية المتّهم في الحال.

حين ولجت إلى الغرفة، لم تر عمر على السّرير. تسمّرت مكانها.. لم يكن عمر قد ترك سريره قطّ حتّى تلك اللّحظة. تساءلت في وجل.. أين يمكن أن يكون؟ همّت بالطّرق على باب دورة المياه، لكنّ أنينًا خافتًا جعلها تخطو لتلقي نظرة على الجانب الآخر من السّرير. فوجئت بعمر ملقى على الأرض، وإلى جواره حقنة محطّمة.

هتف ما إن رآها بصوت متحشرج:

- هيثم!

- سأنادي الممرّضة على الفور!

كرّر في إلحاح:

- هيثم.. إنّه في خطر!

هزّت رأسها في أسى:

- أخشى أنّه قد فات الأوان...

***

مضت ساعات النّهار بطيئة ورتيبة. لم يكن يقطعها سوى زيارة الطّاقم الطبيّ تارة ودخول رنيم العاصف طورًا، ليرجع عمر بعد ذلك إلى مناجاة السّكون ومعاقرة الملل.

ترك كتابه ذلك العصر، وقرّر فتح التّلفاز. لم يكن يهوى التّقليب بين الفضائيّات الفرنسيّة غالبًا، وقد بات الأمر أسوأ بعد أن غدت قضيّته الشّغل الشّاغل للمنصّات الحواريّة والنشرات الإخباريّة.

كانت الشّمس قد مالت إلى الغروب، حين دخل عليه الطّبيب. لم يكن موعد الزّيارة المسائيّة المعتادة قد حان. لكنّ الرّجل كان يبتسم وهو يسأله بأريحيّة:

– كيف أنت اليوم؟

– أفضل.. شكرا لك.

بدا وجه الطّبيب مألوفًا، غير أنّ الاسم المدوّن على صدر مئزره الأبيض كان مجهولًا لديه. الطّاقم الطبيّ يتغيّر بضع مرّات في اليوم، ومن الطّبيعيّ ألّا يحفظ الأسماء كلّها.. لكنّ شيئا ما بدا مريبًا بشأن ذاك الطّبيب. سأله باهتمام:
– دكتور، عنقي يؤلمني.. حين أحاول الالتفات إلى اليمين. هل لهذا علاقة بكسر الترقوّة؟

– بالتأكيد.. سأحقنك بمسكّن يساعدك على النّوم، ويشعرك بتحسّن.

بدا ذلك مفاجئا لعمر. لم يكن ذلك هو البروتوكول الطبيّ المعتاد. لم يكن الطّبيب يزوره منفردًا قطّ، بل يكون برفقته ممرّضة أو اثنتان، وفرد آخر من الطّاقم الطبيّ. كانوا يأتون في مجموعة في كلّ مرّة. ولم يكن الطّبيب يفعل أكثر من الفحص وتفقّد الإصابات.. بينما يعهد بتغيير الضّمادات وتعليق المحاليل وتجهيز الحقن إلى الممرّضات حصريّا.

تلك الزّيارة في موعد غير متوقّع، لطبيب منفرد ومجهول، وبحوزته حقنة جاهزة.. كانت مثيرة للشّكوك!

كان الطّبيب يهمّ بتفريغ محتوى الحقنة في المحلول المعلّق عند رأسه والسّاري في عروقه، حين قاطعه عمر:

- أشعر بتحسّن الآن.. لقد كان ألمًا عابرًا. لا داعي للمسكّن.

لكنّ الطّبيب ألحّ:

- لا بأس، المسكّن لن يضرّ على أيّ حال.

- شكرا لك.. لكنّني لا أحتاجه الآن. هلّا تركته لوقت لاحق؟

بدا على الطّبيب الانزعاج، وتابع:

- بما أنّني هنا، سأضع لك العقار.

وضع عمر كفّه على ذراعه ليوقفه، فنظر الطّبيب في عينيه بحدّة. في تلك اللّحظة، تذكّر عمر أين رأى وجه الطّبيب في السّابق. كان على إحدى الصّور التي عرضها المحقّق!

اتّسعت عيناه في ذهول وقد أدرك مدى الخطر الذي يحيق به، وبدا أنّ الطّبيب أيقن بدوره أنّ قناعه قد سقط. أزاح ذراع عمر بعنف، ودفع بإبرته لتنغرس في أنبوب المحلول. بحركة قويّة، اقتلع عمر الأنبوب من ذراعه ليتخلّص من تدفّق السّوائل إلى جسده.

بادله الرّجل نظرة شرسة، ثمّ انتزع الحقنة التي لم تفرغ من محتوياتها، وهوى بها على ذراع عمر مباشرة. لكنّ عمر كان أسرع. أمسك بمعصم خصمه وتشابكت الأيدي في التحام ساخن، كان من الواضح أنّ الغلبة فيه لن تكون للمصاب الذي يلازم سريره منذ أيّام.

هوى عمر على الأرض، لكنّ سقطته دفعت الطّبيب إلى الوراء، فأفلت الحقنة التي تهشّمت على البلاط وسالت محتوياتها. حدّق فيه في غيظ، وقد أجهضت مهمّته. مال على عمر يهمّ بخنقه بيديه العاريتين، فركل عمر ساقه وهو ممدّد على الأرض بكلّ ما تبقّى في جسده من قوّة، ثمّ التقط الإبرة المنفصلة عن حطام الحقنة التي استقرّت غير بعيد عنه، وغرسها في قدمه. تأوّه الرّجل وانقبضت ملامحه. ألقى على عمر نظرة متوعّدة، ثمّ انسحب من الغرفة مخفيا عرجه.

***

طالعت رنيم ساعتها في ارتباك. تفصلها ساعتان عن انتهاء مهلة المدّعي العام. تناولت هاتفها واتّصلت بجورج. قالت في انفعال:

– اتّصل بمكتب النّيابة واقبل عرضهم!

– ماذا تقولين؟

بدا جورج مشوّشا وغير مستوعب. فأضافت في استماتة:

– يجب أن تساوم على خمس سنوات فقط، مثل العرض الذي جاء لهيثم. أقنعهم أنّ عمر سيدلي بمعلومات وافرة عن جهات الاتّصال بالمنظّمة الإرهابيّة!

هتف جورج في دهشة:

- هل أنت واثقة؟ هل تعلمين أنّك تخاطرين بمصير موكّلك؟

- لا تقلق.. إنّها مخاطرة محسوبة.

زفر في توتّر ثمّ قال:

- ماذا عن عمر؟ هل وافق على هذا؟

قالت على عجل:

- ليس بعد.. لكنّه سيفعل.

أضافت أمام تردّده:

- لم يبق الكثير من الوقت. سأشرح لك لاحقًا. إذا أنهيت المساومة، اتّصل بي على الفور!

قال في استسلام:

- حسنا.

أخذت رنيم نفسًا عميقًا، ثمّ خطت إلى قسم العناية المركّزة. كانت تدرك سلفًا أيّ نوع من المشاهد سيقابلها. كانت ياسمين منهارة، تحتضنها ميساء وتتقاسمان اللّوعة. في الدّاخل، لم تتوقّف محاولات إنعاش قلب هيثم الذي توقّف منذ دقائق، بمفعول عقار مجهول سمّم جسمه وأوقف نبضاته.

توقّفت إلى جوار رجل الأمن الذي يتابع المشهد ويتهيّأ للاتّصال بمكتب الادّعاء في حال تغيّرت المعطيات الحياتيّة للمتّهم. قالت بهدوء وهي تمرّ حذاءه:

– إنّها مجرّد نوبة.. ستمرّ على خير كما مرّت سابقاتها.

ابتسمت وهي ترنو إليه بثبات، وأملت أن تخدعه ثقتها فلا يتسرّع في الاتّصال قبل أن تُحسم الصّفقة التي يساوم عليها جورج في الوقت ذاته. إنّها في سباق مع الزّمن.

تعالى رنين هاتفها، فتراجعت خطوتين وردّت على الاتّصال من مكتب النّيابة العموميّة:

– أستاذة رنيم، هل تعرفين أنّ زميلك قد اتّصل بي للتوّ لإبرام صفقة لموكّله؟

قالت بنبرة ساخرة:

– حقّا؟ لا أصدّق كلمة من هذا.. أعرف أنّ جورج لن يخونني!

– صدّقي أو لا تصدّقي.. لقد وافق عمر الرّشيدي على خيانة صاحبه والاعتراف عليه.. وهذا يجعل موكّلك في وضع لا يُحسد عليه!

قالت متظاهرة باللامبالاة:

– أعرف ما تحاول فعله.. أنت تزرع الشكّ بيننا حتّى يقنع كلّ منّا موكّله بالاعتراف.. ولصالح من هذا؟ لصالح الادّعاء بالتّأكيد! وفّر أساليبك الملتوية، هيثم الأندلسي لن يعترف!

جاءها صوت المدّعي العام مشبعًا بالحنق:

– هذا غباء غير مسبوق أستاذة رنيم.. أنت تفوّتين فرصة ذهبيّة على موكّلك! لقد انطلق المحقّق لأخذ أقوال عمر الرّشيدي منذ حين.. إذا شئت، يمكنك لقاؤه في المشفى قبل أخذ شهادة المتّهم، وتكون الصّفقة من نصيبك...

قاطعته بلهجة حاسمة:

– يبدو أنّك لم تسمع جيّدا ما قلته. لا صفقة بالنّسبة إلينا. شكرًا لاقتراحك!

صرخ في غيظ:

– إذن قولي وداعًا لموكّلك.. سيسكن طويلا، طويلا جدّا خلف القضبان!

أنهت الاتّصال وهي ترتجف. اقتربت من رجل الأمن الذي كانت المكالمة تحت سمعه وبصره، وقالت بلهجة متهكّمة:

– هل هو هكذا دائما؟ يحاول فرض رأيه على الجميع؟

ابتسم رجل الأمن لملاحظتها، ولم يعلّق. فأضافت بلهجة واثقة:

– هيثم الأندلسي لن يعترف.

ثمّ سارت حتّى غرفة الانتظار. وقفت تترقّب ظهور أحد أفراد الطّاقم الطبيّ من الدّاخل، وهي تتلفّت في توتّر. إن حصل شيء لهيثم، فلا يجب أن يصل الخبر إلى المدّعي العامّ الآن. عليها أن تؤخّر انتشار الخبر بقدر ما يمكنها.

خرجت ممرّضة مرتبكة بعد حين، فاستوقفتها رنيم. قالت على عجل:

- نحن نفعل ما بوسعنا...

- هل سينجو؟

هزّت الممرّضة كتفيها في قلّة حيلة. أومأت رنيم في تفهّم، ثمّ عادت إلى حيث تجلس ياسمين. وقفت تفرك أصابعها في عصبيّة. تشعر بثقل الثّواني التي تمرّ على كتفيها. كلّ لحظة تمرّ تقرّبها من النّهاية المحتومة. وحدها تعلم أنّ أمر هيثم قد حُسم.

ارتفع رنين هاتفها من جديد. ردّت في لهفة:

- جورج، ما الجديد؟

- سأصل خلال دقائق.. المحقّق في الطّريق. أنت واثقة من اعتراف عمر؟

- سأحرص على ذلك.

تركت موقفها عند قسم العناية المركّزة وعادت إلى غرفة عمر. بادرها فور دخولها:

- هيثم؟

قالت بلهجة حاسمة:

- لقد نجح في حقنه.. انتهى أمره!

- هل.. مات؟

كانت تعلم أنّ أيّ أمل في نجاة هيثم سيجعل عمر يتقاعس عن الاعتراف. لن يمتلك الشّجاعة للمضيّ في الصّفقة إذا ساوره أيّ شكّ في ظلم صاحبه.

هزّت رأسها بحركة بطيئة موجبة. لقد مات. أخفى وجهه بين كفّيه، وأجهش بالبكاء. لم تره يبكي قطّ. لقد كان متماسكًا إلى درجة مدهشة، طيلة فترة محاكمته الأولى. لم يثبّطه الألم ولا قصر الأمل. لكنّه اليوم يبكي صاحبه، فتنهمر العبرات على وجهه دون مواربة.

طالعت ساعتها في ضيق. الوقت ينفد. سيكون المحقّق عنده خلال دقائق قليلة. قالت في رجاء:

– يجب أن تعترف! المكان الوحيد الآمن لك في الوقت الحالي هو خلف القضبان!

كان يجب أن تُدرك ذلك في وقت أبكر. الموساد لا يترك مهمّة غير منتهية! كيف للاغتيال أن يفشل بتلك البساطة؟ سيظلّون خلفه، حتّى ينتهي أمره. في تلك اللّحظة، تبخّر من رأسها حلم البراءة الخياليّ والمرجوّ. لم يعد مغريّا أبدًا. البراءة تتساوى والإعدام. كان يجب أن يبقى في السّجن، حتّى تهدأ الأوضاع وتصبح القضيّة طيّ النّسيان. أضافت في اندفاع:

– لقد تحدّثت إلى ياسمين. لا بأس بوضع اللّوم على هيثم...

نظر إليها في صدمة:

– تحدّثت إليها.. في مثل هذا الظّرف العصيب؟

ازدردت لعابها في توتّر، تداري كذبتها. سيتفهّم الأمر لاحقًا حين يدرك دوافعها. ياسمين أيضا ستتفهّم. قالت بحزم:

– الحيّ أولى من الميّت!

الحيّ والميّت! من الحيّ ومن الميّت؟ كلّ ما يعرفه هو أنّ هيثم حيّ.. إنه أكثر حياة من أي وقت مضى، شهيد عند ربه.. (بل أحياء عند ربّهم ولكن لا تشعرون)! غامت عيناه بدموع حسرة ولوعة، واكتست قسماته فرقًا وشوقًا. فرقًا لفراق صاحبه.. وشوقًا لشهادة حازها دونه. أردفت تستعجله:

– المحقّق يصل خلال عشر دقائق. عليك أن تعترف وتوقّع.. قبل أن يستشري خبر وفاة هيثم. حينها يصبح الاعتراف بلا قيمة! هل فهمتني؟ حين يصل المحقق إلى هنا وتوقّع الصفقة، يمكنك أن تعلن الحداد على صديقك.. أما الآن فعليك أن تتمالك نفسك!

لم يردّ عمر. بدا منفصلًا في عالمه، نظراته غائبة وقد اختفت الدّماء من وجهه. استدارت رنيم لتغادر الغرفة في صمت. ستمنحه بضع دقائق ليستوعب الوضع. قالت قبل أن تغلق الباب خلفها:

– لا تدع تضحية هيثم تذهب هباءً.. يكفي أن يدفع أحدكما الثّمن.

وقفت في الممرّ، تذرع المسافة جيئة وذهابًا، حتّى أبصرت جورج مقبلا.

– هل أقنعته؟

– آمل ذلك.

التفت الاثنان حين رنّت خطوات المحقّق خلفهما. تبادلا نظرة قلقة، ثمّ تقدّم جورج ليسبقه نحو غرفة عمر.

– هل المتّهم جاهز للاعتراف؟

– نعم سيّدي المحقّق.

ثمّ غاب الاثنان وراء الباب المغلق.

*

– ساعة الوفاة.. السّادسة مساءً واثنتان وعشرون دقيقة.

أعلنها الطّبيب وهو يسحب قناع التنفّس عن وجه هيثم، ويطفئ أجهزة الإنعاش واحدًا إثر الآخر. لقد انتهى صراعه مع الموت بهزيمة ساحقة. ذاك كان قدره.

هرولت رنيم في الممرّات، وقفت على مبعدة، تطالع الوجوه الكالحة في ذعر. لقد انتهى الأمر. على المقعد قبالة الغرفة، انهارت ياسمين في استسلام، بين أحضان ميساء.. تبكي إحداهما زوجها والأخرى شقيقها. شعرت بغصّة في حلقها. تأمل أن يكون عمر قد أصغى إلى صوت العقل واعترف. حين يخرج المحقّق من الغرفة، سيعرف بوفاة هيثم. ما لم يكن عمر قد وقّع الصّفقة بالدّاخل، سيكون كلّ شيء قد ضاع.

خلال دقائق، وصلت زهور وفاطمة وعبد الحميد، واندلعت مناحة جماعيّة في قاعة الانتظار. لم تتمالك رنيم نفسها، فتركت العنان لعبراتها هي الأخرى وانضمّت إلى جموع النّائحين. كان الثّقل الذي يرزح تحته صدرها قد فاض بها. لقد فعلت ما بوسعها لتحافظ على رباطة جأشها، وحرصت على بقاء صفاء ذهنها حتّى تخرج من الأزمة بأخفّ الأضرار.

لكنّ كأسها قد فاضت الآن. أخذت تنشج في استسلام، من أجل هيثم وياسمين وعزّ الدّين، ومن أجل المخاوف التي كبتتها داخلها.. فقدان شهاب، والتوأم الذي يسكن أحشاءها.. ومن أجل عمر الذي لا تعلم يقينًا إن كان سيترك مجهوداتها تذهب هباءً بعناده المعهود!

كانت طاقتها قد نفدت، كأنّ إعلان وفاة هيثم يسدل السّتار على فصل المعاناة الذي عاشته خلال الأسبوع الماضي. والآن سيكون عليها معاينة الخسائر.

تركت قاعة الانتظار التي تغرقها الدّموع وعادت أدراجها إلى قسم الجراحة. وقفت في توتّر تطالع الباب المغلق. إنّها تتمنّى أن تكون بالدّاخل الآن، تستمع إلى ما يقال. لكنّها لا تملك إلّا أن تدعو.

اقتربت من رجل الأمن الذي لم يبرح موقعه وسألت في اهتمام:

– هل ما زال المحقّق هنا؟

هزّ رأسه بعلامة الإيجاب، فتنهّدت في ارتياح. امتداد الجلسة يدعو إلى التّفاؤل. لو أنّ عمر رفض الاعتراف، لكان قد غادر على الفور. استدارت على عقبيها، وسارت في اتّجاه مكتب مدير المشفى.

استقبلها الرّجل باحترام واهتمام. لقد بات يعرفها الآن، بعد أن أحضرت شهاب من أجل جراحة عمر. قالت بلهجة جادّة:

– هذه القضيّة، إنّها حسّاسة للغاية. أنت تدرك ذلك.

هزّ المدير رأسه في انتباه، فواصلت:

– هل يمكنك تأخير الإعلان الرّسميّ لوفاة هيثم الأندلسي حتّى صباح الغد؟

– عفوًا؟ ما السّبب؟

– لقد كانت هناك محاولة اغتيال ثانية —ناجحة هذه المرّة— داخل المستشفى! لقد تسلّل شخص ما، منتحلًا صفة طبيب، وحقن المريض بشيء ما. قبل أن تعلن سبب الوفاة، أرجو منكم التّعاون معنا في هذا الصّدد...

حدّق فيها في ارتباك:

– ما المطلوب منّي؟

– صور كاميرات المراقبات في الممرّات المؤدّية إلى قسم العناية المركّزة وقسم الجراحة.. بالإضافة إلى المداخل الرّئيسيّة للمباني. لا شكّ أنّها ستظهر مرتكب العمليّة.

– بالتّأكيد.. لديك إذن للاطّلاع عليها.

صافحته رنيم في امتنان، ثمّ غادرت وبحوزتها إذن مختوم من المدير.

حال عودتها بعد عشر دقائق، أبصرت جورج برفقة المحقّق، يقفان في الممرّ. تصافحا بحرارة ورضا، ثمّ ابتعد المحقّق مستعجلا. هرعت رنيم إلى جورج، فابتسم مطمئنا إيّاها:

– سار كلّ شيء على ما يرام.

– هل اعترف؟

– لقد فعل.

زفرت في ارتياح واسترخت قسماتها. على الأقلّ، لم يضع كلّ شيء. قبل أن يسألها جورج، همست بنبرة حزينة:

- مات هيثم.

- يا إلهي! لهذا كنت مستعجلة.. لو أنّنا تأخّرنا دقائق قليلة...

استند جورج إلى الجدار، وقد اتّسعت عيناه في دهشة وعدم تصديق. لقد كان ذلك وشيكًا. لكنّ رنيم حظيت بسرعة البديهة الكافية لقلب الموازين قبل اللّحظة الحاسمة.

همست رنيم ثانية في توتّر:

- هل تعتقد أنّ المدّعي العامّ قد يتراجع عن العرض.. حين يصله خبر هيثم؟

- يمكننا الطّعن أمام المحكمة.. لقد وقّع المتّهم على الصّفقة واعترف. أيّ محاولة للالتفاف على الاتّفاق ستوقع مكتب النّيابة العمومية في مأزق أخلاقي.

زفرت بحرارة. لم تكن تستطيع أن تستسلم للاطمئنان بعد. ليس قبل النّطق بالحكم النّهائيّ. لكنّها قطعت شوطًا لا بأس به حتّى الآن. أضاف جورج:

- لقد اتّفقنا على نقله صباح الغد إلى السّجن المدنيّ.

- سيكون ذلك أفضل.

قالت وهي تضع إذن الاطّلاع على صور المراقبة بالمبنى بين يدي جورج:

- ستحتاج هذا.

ثمّ أضافت وهي تشير إلى نهاية الممرّ:

– عليّ الانصراف الآن.

*

رحل هيثم.

كانت تدفع عن قلبها إحساسًا مريعًا، مؤلمًا وملحّا بأنّها قد فقدته، منذ يومين. تلك الجلسة العائليّة غير المأمولة التي جمعت ثلاثتهم، بدت مثل لحظات وداعٍ. لكنّها لم تستشفّ ذلك على الفور. احتاجت ليلتين من الترقّب، ودفقًا غزيرًا من دمع العين، لتدرك أنّه استيقظ ليلقي نظرة على ولده، ويزوّدها بدقائق قليلة من صحبته، قبل أن يعود إلى غياهب الظّلمات التي ابتلعته.

تستلقي على محفّة الطّوارئ التي جيء بها من أجلها، بعد أن انخفض ضغطها وفقدت وعيها. تهمس فاطمة في أذنها من بين نشيجها وشهقاتها:

– إنّها الشّهادة يا صغيرتي.. الشّهادة. لقد نال ما يُدفع العمر في سبيله وما يبذل الرّجال فيه الغالي والنّفيس. لقد أبدله الله دارًا خير من داره، مع النبيّين والصّدّيقين والصّالحين. لا تحزني عليه، فقد غدا إلى نعيم...

كانت تُصغي إلى صوتها الدّافئ النديّ، بنصف وعي، وقد استولى الضّباب على عقلها ووهن جسدها. استكانت على السّرير، لا تحرّك ساكنًا، إلّا من عبرات استمرّت في الهطول بلا إرادة منها.

ثمّ غفت. وفي غفوتها، رأته.

كان وجهه أبيض مضيئا، وفي عينيه إشراقة نابضة بالحياة. كانت ما تزال ممدّدة بلا حراك على سريرها، فاقترب منها هيثم حتّى جثا على ركبتيه بالقرب منها. شعرت بملمس راحته وهو يتحسّس جبينها، ثمّ يهمس مواسيًا:

- كوني قويّة.. من أجل عزّ الدّين.

يتنامى الألم المبرح في صدرها، فيشقّه. تتصاعد الآهة قادمة من أعماقها، حتّى إذا لفظتها شفتاها، خرجت طويلة وخافتة مثل أنين المحتضر.

- لست قويّة.. لقد كنت قويّة بك، فمن أين تأتيني القوّة الآن؟

رنت إلى عينيه في ضعف، فبثّها في نظرته ثقة وشجاعة:

- من الأمومة. أنت أمّ.. إذن أنت قويّة!

فتحت عينيها فجأة، فتبدّدت الرؤيا وتلاشى خياله من بين عينيها. تلفّتت حولها في شبه هذيان، ثمّ همست في ضياع:

- عزّ الدّين.. أين عزّ الدّين؟

- في الحضانة يا حبيبتي.. هل نذهب إليه؟

أومأت في إصرار، فرافقتها فاطمة إلى غرفته. وقفت تراقبها خلف النافذة الزّجاجية، كما فعلت دائمًا. رأتها تجلس على المقعد الوثير المهيّأ للأمّهات، ثمّ تتلقّف وليدها الذي أحضرته الممرّضة من الحاضن الخاصّ به. ألصقته بصدرها وألقمته ثديها، للمرّة الأولى. تابعتها في دهشة. ما الذي تحاول فعله؟

شدّت ياسمين على كفّ رضيعها في عنفوان، واحتضنته بقوّة، وهي تهمس في أسى:

– لقد بتنا وحدنا الآن.. أنا وأنت. سنكون أقوياء. يجب أن نفعل.

تساقطت عبراتها لتبلّل وجه الطّفل، وتنساب على وجنته، كأنّها عبراته.. بينما يلتصق وجهه بصدرها، وتتحرّك غريزة الامتصاص داخله، فيأخذ فجأة في استدرار اللّبن. حدّقت الممرّضة مأخوذة وهتفت:

– هذا مذهل.. لقد غدا قادرًا على الرّضاعة بنفسه! هذا مدهش!

ابتسمت ياسمين، ثمّ ابتلعت الشّهقات فرحتها. تمتمت والألم يسحق صدرها، فيزداد ضغطها على جسد الطّفل كأنّما تروم أن تعيده إلى أحشائها:

– لقد أضحيت رجلًا، يوم رحل أبوك. هكذا يولد الأبطال.

***

حدّقت رنيم في عدسة التّصوير بنظرات زائغة. كانت تجد صعوبة في إبقاء ذهنها متيقظا والمحافظة على تركيزها طيلة البثّ المباشر.

– فاصل قصير ونعود!

أعلنت ماتيلد دوبري بابتسامتها المعتادة، وجمدت ملامحها، حتّى أعطى المخرج إشارة انقطاع البثّ. زفرت وهي تستدير إلى رنيم في قلق:

– تبدين مشوّشة اليوم.. هل كلّ شيء على ما يرام؟

– آه، كان أسبوعًا مرهقًا في المكتب.. هذا كلّ ما في الأمر.

– بالتّأكيد.. ستحدّثيننا عن ذلك في وقت لاحق.

ابتسمت رنيم في حرج ولم تعلّق. كان من المربك أن تضطرّ إلى ترك ياسمين وعائلة هيثم في المستشفى وتسارع إلى المحطّة التّلفزيّة من أجل حلقة «الحقيقة الكاملة». ودّت لو امتلكت رفاهية الاعتذار والانسحاب.

بل لعلّها لم تمتلك الشّجاعة.

ليست الشّجاعة في مواجهة ماتيلد، بل في البقاء إلى جوار ياسمين.

استنشاق الألم الذي تعبق به الأجواء من حولها. ابتلاع الحزن على معدة خاوية، واجترار الوجع والدّموع. لم تكن قادرة على ممارسة طقوس المواساة. لم تعرف قطّ كيف تكون سندًا. إنّها لا تحتمل كمّ البؤس الذي يستجلبه موت المقرّبين.. لذلك اتّصلت برانيا وسكينة لتقوما بواجب العزاء، وفرّت متحصّنة بالتزاماتها المهنيّة!

– عدنا أعزّائي المشاهدين.. مرحبا بكم مرّة أخرى.

انتبهت من شرودها على صوت ماتيلد يصدح من جديد معلنًا استئناف الحلقة.

– تابعنا جميعًا خلال هذا الأسبوع، ببالغ الدّهشة والأسف، حيثيّات حادثة إطلاق النّار على مدنيّين بالضاحية الجنوبيّة.. ورأينا كيف انقلبت الضحيّتان إلى موقع الاتّهام! لو تذكرون، برنامج « الحقيقة الكاملة» كانت له الأسبقيّة في لقاء الدّكتور عمر الرّشيدي منذ سنتين، بعد إخلاء سبيله.. إثر قضيّة التّفجير في مختبر الكيميائيّات...

نقلت الشّاشة صورًا من الحوار السّابق الذي جمع عمر ورنيم بفريق البرنامج.

– يبدو أنّ الدّكتور عمر لا يخرج من مأزق إلّا ليتورّط في غيره! من حسن الحظّ، معنا الأستاذة رنيم شاكر، التي تعتبر مطّلعة أكثر من غيرها على ملابسات القضيّة.. أستاذة رنيم، هل يمكنك مشاركتنا معلومات حصريّة عن المستجدّات؟

كانت رنيم ترقبها في صدمة، ولم يبد عليها استيعاب أنّ الحديث موجّه إليها.

– أستاذة رنيم!

– عفوًا؟

قالت ماتيلد متضاحكة:

– يبدو أنّ طلبي منافٍ لمبدأ السرّيّة المهنيّة بين المحامي وموكّله.. أعتذر منك على الإحراج أستاذة رنيم، لكنّنا نطمع في تلميحات حصريّة للبرنامج، إن أمكن!

مرّة أخرى، لم تتجاوب رنيم بشكل سريع. سكتت طويلا، كأنّما فقدت سرعة البديهة التي تميّزها، ثمّ قالت أخيرًا بصوت مختنق:

– لقد كان.. أسبوعًا مليئًا.. بالمفاجآت!

شجّعتها ماتيلد بنظرة وهزّة رأس. التفتت رنيم إلى الكاميرا، ازدردت ريقها، ثمّ داهمها خاطر مفاجئ. كان بوسعها تحويل المأزق إلى فرصة. قالت مستعيدة ثباتها الانفعاليّ:

– في الحقيقة، كانت هناك محاولتا اغتيال.. لا محاولة واحدة!

– يا إلهي! هذا سبق صحفيّ حقيقيّ!

– المحاولة الثّانية، كانت مساء اليوم...

– معقول؟!

– أثناء احتجازهما على ذمّة العدالة، تعرّض المتّهمان إلى الاعتداء من قبل نفس المجموعة الأجنبيّة.. ولذلك قرّر عمر الرّشيدي الاعتراف وقبول عرض المدّعي العام، خوفًا على حياته!

-٣٤-

هرولت الأقدام في الممرّ متعجّلة لاهثة. وصل جورج وبرفقته سيّدة في منتصف الأربعينيات، تسحب حقيبة سفرها وتلهث خلفه. قال حين أصبحا عند قسم الجراحة:

– لقد وصلنا.. لم تأت عربة التّرحيل بعد.

تنفّست عائشة بصعوبة. لم يكن هذا ما خطّطت له. لقد كان في البرنامج جولة سياحيّة بين معالم العاصمة الفرنسيّة، ثمّ زفاف خلال أسبوع واحد. لكنّ اتّصال المحامي كان غير متوقّع. قال باقتضاب:

– عمر يمرّ بظرف طارئ، طلب منّي أن أبلّغك بإلغاء الرّحلة. لن يكون بوسعه استقبالكم الآن. شكرا لتفهمكم.

كانت في معزل عن الأنباء الفرنسيّة، تنأى بنفسها عن القيل والقال ولا تتابع من نشرات الأخبار إلّا النّزر اليسير ممّا يسلّيها، ولا تهتمّ بالعبارات الرنّانة التي تفوق إدراكها. لم تتوقّع قطّ أن تجد فيها ما يعنيها. لكنّها ألحّت حتّى يخبرها الحقيقة، قلبها أخبرها أنّ خطبًا ما قد وقع. أعلنت أنّها لن تلغي الرّحلة مهما حصل.. «حتّى لو كانت ستعود بجثّة أخيها»، فهي ستأتي لا محالة! أثّرت به لوعتها وبكاؤها الشّديد. كانت تعلم، بحدسها أنّ مصيبة ما قد حلّت بعمر.. مرّة أخرى. أرادت أن تكون إلى جواره هذه المرّة.

ألغت تذاكر طفليها، وسافرت بمفردها. والآن، تقف عند الغرفة، تستظهر وثائق هويّتها إلى رجل الأمن، بكفّ مرتجف، ثمّ تلج إلى الدّاخل.

حدّق عمر بها غير مصدّق. كانت الممرّضة تساعده على الانتقال إلى الكرسيّ المتحرّك، استعدادًا لمغادرته المستشفى. صرخت عائشة في ارتياع:

- هل قدماك بخير؟ ألا تستطيع المشي؟

احتواها عمر بين ذراعيه في حنان، فاستمرّت تنتحب في حضنه. أخذ يربّت على ظهرها مهوّنا ثمّ أبعدها عنه قليلا ليقول:

- يمكنني الوقوف.. انظري!

استند إلى جانبي المقعد ليستقيم واقفًا، ثمّ خطا ببطء حول الغرفة، ليهبها برهانًا لا مجال لدحضه على سلامة أطرافه.. ثمّ عاد ليلقي بنفسه على المقعد في إعياء. قال مغالبا ألمه:

- أنا بخير.. أرأيت؟

تمتمت في حسرة:

- أيّ خير أنت فيه يا أخي! لا تخرج من مصيبة إلّا لتقع في أخرى!

تنهّد في حرارة. لا يمكنه أن ينكر أيّ شيء، وقد اعترف بالأمس أمام المحقّق. لقد بات كلّ شيء محسومًا الآن. خمس سنوات نافذة، سيضطرّ خلالها إلى الغياب. قال معتذرًا:

– لم أشأ أن أشغلك بأمري.. هذه حياتي، وقد تعوّدت على زلازلها وأعاصيرها.. وقد كان يهوّن عليّ الأمر ألّا أخلّف ورائي وجوها دامعة. لم أرد أن تريني بهذا الشّكل...

قالت في حزن:

– كم الحكم هذه المرّة؟

– خمس سنوات.

زفرت بقوّة، ثمّ قالت بلهجة صارمة تداخلها الدّموع:

– ستعود بعدها إلى المغرب، هل سمعت؟ وستبقى إلى جواري حتّى آخر أيّامي.. لا غربة بعد الآن!

جاراها ليطمئن فؤادها المكلوم. لقد كانت أمّا له على الدّوام، لا أختًا وحسب:

– لا غربة بعد الآن...

في تلك اللحظة، تعالت طرقات على باب الغرفة. أطلّ جورج ليعلن بصوت حزين:

– لقد حان الوقت!

على الفور، دخل رجلا شرطة. تولّى أحدهما تقييد معصمي عمر، ثمّ دفع الثّاني كرسيّه المتحرّك عبر ممرّات المستشفى. هتفت عائشة وهي تلهث خلفه:

- سوف آتي لزيارتك!

فاستدار ليلقي عليها نظرة آسفة، متجاهلًا تحديق النّاس في موكبه غير الاعتياديّ. حانت منه التفاتة حين لمح لافتة تشير إلى قسم العناية المركّزة. تمنّى لو كان بوسعه إلقاء نظرة أخيرة على هيثم، تودعيه، وتقديم العزاء لأهله، والاعتذار منهم. تمنّى أن يحدّثهم عن هيثم الذي يعرفه ويجهلونه. عن إخلاصه وقوّة عزيمته.. عن حبّه للخير، ومبادراته في الحقّ.. عن ثباته وشجاعته، عن كفالته للأيتام ودعمه للطلّاب المغتربين...

تمنّى أن يعرف الكلّ ما كان عليه من بطولة وشهامة.. لكنّ الموكب تقدّم بثبات حتّى عربة التّرحيل الرّابضة عند مدخل المستشفى.

***

يرحل الرّاحلون، والحياة تستمرّ.

هكذا هي الدّنيا.

بعد العزاء، انتقلت ياسمين وفاطمة إلى شقّة الشّركة. إن كان هيثم قد تركها، فلديها عزّ الدّين، وهو بحاجتها. بل لعلّها بحاجته أكثر ممّا هو بحاجتها.

إنّ وجوده في حياتها يبقيها صامدة، ويحفظ عقلها من الجنون، وفؤادها من الانشطار. لولا تلك السّاعات التي تمضيها برفقته، تهدهده وترضعه، ترثي أباه في مسمع منه، لأذهب الحزن لبّها. كانت في غاية الامتنان، لأنّ الله رزقها طفلًا يبدّد وحشتها ويحفظ ذكرى زوجها في وجدانها. قطعة منها ومنه.. مزيج من كيانين كُتب لهما الافتراق، لكنّ أثر اجتماعهما باقٍ في ذاك الكيان الثّالث.

جاءت الفتيات لزيارتها، في المساء. وقد فعلن كلّ يوم تقريبًا. كانت تجلس بينهنّ في سكون، تستمع إلى مواساتهنّ وتهزّ رأسها في استسلام وثبات. تمتنّ لدفء جلستهنّ وتغلق على الحزن أبواب صدرها، فلا تسكبه إلّا في خلواتها بربّها.

غير أنّها استقبلت حضور ميار في فرحة حقيقيّة. لقد بات أكثر ما يحرّكها عاطفة الأمومة، وقد دبّ في شرايينها الحماس من أجل سعادة سكينة بطفلتها. احتضنتها بقوّة، كما تحتضن عزّ الدّين تلك الأيّام، حتّى تكاد تمتزج ضلوعهما، ثمّ رنت إلى سكينة في دعم:

- هنيئا لكما اجتماع شملكما أخيرًا.

وفي تلك الأمسية، انتحت بها رنيم جانبًا وهمست في اعتذار:

- كان يجب أن أخبرك بهذا منذ أيّام.. لكنّ الوضع لم يكن مناسبًا، والوقت ضيّق.. فاضطررت إلى التصرّف من تلقاء نفسي.

حدّقت فيها ياسمين في تساؤل، فشرحت رنيم في خجل فعلتها. ثمّ أكملت بنبرة آسفة:

- لم يكن عمر ليقبل بالاعتراف، لولا موافقتك.

ابتسمت ياسمين وقالت مهوّنة:

- لقد أحسنت التصرّف.. كان ذلك ما يجب فعله.

ثمّ اغرورقت عيناها وهي تضيف:

- هيثم لم يكن ليرفض.

ما تزال تتحدّث عنه كأنّه شخص غائب بشكل مؤقّت، أو حاضر رغم تواري جسده. لم تكن تشير إليه بالرّاحل أو الفقيد أو المرحوم أو حتّى الشّهيد. لقد كان حيّا، في فؤادها. تستمرّ تردّد في صبحها ومسائها: هذا يعجب هيثم، وذاك لم يكن ليرضيه.. سيفرح بكذا، أو يعجب بكذا، لو أنّه يراه.

إن كانت رنيم قد شكّت يومًا في حبّ ياسمين لزوجها، واضطرارها إلى ارتباط يحكمه العقل وليس للعاطفة منه نصيب، فإنّ تلك الشّكوك كلّها قد تبخّرت منذ أمد.. وقد ازدادت يقينًا بعد الفاجعة. لعلّها تمنّت في سرّها ألّا تكون ياسمين قد تعلّقت به إلى تلك الدّرجة، حتّى يكون رحيله أخفّ وقعًا عليها! لكنّ المشاعر لم تكن قطّ طوع بنان صاحبها –فضلا عن أصحابه– تتشكّل لتوافق متطلّبات المرحلة، فتارة تعلو وأخرى تخفت.

وفي تلك الأمسية أيضا، استجمعت رنيم شجاعتها لتقف أمام جمعهنّ، لتتنحنح فيجلو صوتها، ثمّ تعلن أخيرًا في شكل مسرحيّ:

– أنا حامل.. في توأم!

تعالت الهتافات الحماسيّة غير مصدّقة، ثمّ التّهاني والأماني. لم تكن رنيم قد تقبّلت الوضع بعد، لكنّ الإعلان كان جزءًا من طقوس القبول. هل تحرّكت غريزة الأمومة داخلها وهي ترقب ياسمين تهتمّ بعزّ الدّين وتشرق قسماتها ما إن تقع عليه نظراتها أو تأتي على ذكره؟ أم أنّ عودة ميار إلى سكينة وما أضفته من حيويّة على أجواء الشقّة جعلها تتوق إلى حياة العائلة التي لم تعرفها قطّ؟ تركت جانبًا تجربتها الشخصيّة مع عائلة مفكّكة الأواصر، لترنو في أمل إلى حياة عائليّة دافئة ممكنة. لكنّها لم تخبر شهاب بعد، ولم تكن تنوي إخباره في القريب. همست لرانيا محذّرة:

– احتفظي بالخبر لنفسك. لا أريد أن يعرف شهاب الآن.

حدّقت فيها رانيا في دهشة وسألت:

- لماذا؟

أخذت رنيم نفسًا عميقًا ثمّ قالت:

- لا أريد أن يستغلّ فرصة الحمل كورقة ضغط. لم يتغيّر شيء بشأن خططي المستقبليّة. لن أرجع إلى مصر.. هذا أمر مفروغ منه.

تعالت طرقات محتشمة على باب الشقة، فوقفت رنيم على الفور. قالت في حماس:

- لا شكّ أنّها عائشة.. لقد دعوتها لمسامرتنا.

فتحت الباب ورحّبت بشقيقة عمر في حفاوة، ثمّ قدّمتها للحاضرات. دخلت عائشة في وجل، ووضعت طبق «بسطيلة» بالدّجاج والفواكه الجافّة منزليّ التحضير على المائدة، ثمّ جلست بينهنّ. كانت قد استقرّت في شقّة عمر الواقعة في الطّابق الأسفل بعد أن تمكّن جورج من الحصول على نسخة من مفاتيح عمر من أجلها.

لقيتها رنيم ذلك اليوم في المستشفى، حين أحضرها جورج من المطار لتوديع عمر قبل زجّه في الزنزانة. كانت تجرّ حقيبتها ويبدو عليها التّوهان والتشتّت. أن تصل إلى بلاد غريبة لا تكاد تعرف فيها أحدًا، لتجد نفسها بعد لحظات وحيدة وبلا سند، لم يكن بالشّيء الهيّن. تطوّعت رنيم لمرافقتها إلى الشقة، ثمّ طمأنتها إلى إقامة ياسمين في الشقة فوقها. قالت بنبرة أسى:

- كلّنا شركاء في المصاب.. لذلك، يجب أن يدعم بعضنا بعضا.

لم تفهم عائشة لماذا ضمّت رنيم نفسها إلى جمع المصابين، لكنّها تقبّلت تضامنها بامتنان. وهي تجلس بينهنّ في تلك الأمسية، عرفت بحدسها أنّهنّ «عائلة واحدة» رغم اختلاف الأصول والانتماءات الجغرافيّة.

كانت قد زارت ياسمين مرّة واحدة، منذ يومين، لتقدّم عزاءها. لم يستمرّ اللّقاء سوى دقائق معدودة، اعتذرت بعدها على تطفّلها ومضت. ذهبت بعدها لزيارة عمر في سجنه، كما تفعل بشكل يوميّ، في حين غادرت ياسمين إلى المشفى، حيث تمضي سحابة يومها برفقة رضيعها الذي تزداد بنيته قوّة يومًا بعد يوم.

همست رنيم قبيل نهاية السّهرة:

– غدا ستكون الجلسة.. لعلّها تكون الفرصة الأخيرة لرؤيته وجهًا إلى وجه.

أومأت عائشة موافقة. غدًا سيكون النّطق الرّسميّ بالحكم. بعد ذلك، يبدأ العدّ التّنازليّ لعودتها إلى الدّيار. لقد خلّفت زوجًا وولدين، لم يكن بوسعها إطالة الغياب عنهم. كان بودّها أن تسفر رحلتها عن زفّ شقيقها الأصغر إلى بيت الزّوجيّة. لكنّ سفرتها الأولى إلى أوروبا كانت لتشهد سقوطه المدوّي والمتكرّر بشكل مفجع.

***

تزاحم الخلق داخل قاعة المحكمة وخارجها، صحفيّون ومصوّرون بالأساس، بالإضافة إلى الفضوليّين والمتعاطفين. دخل عمر يمشي على قدميه. بدا أنّ إصاباته قد تماثلت للشّفاء خلال الأسبوع المنصرم. أم لعلّها ظروف الحبس، تجبر الجسد على التأقّلم، فيخشوشن وتزداد صلابته.

وقفت عائشة، ولوّحت له في شوق ولهفة، فابتسم قبل أن يتّخذ مجلسه عند منصّة الدّفاع. لم يكن جورج قد وصل بعد. لقد طمأنه بالأمس. الجلسة لن تكون إلّا إجراءً شكليّا. سيسقط المدّعي العام التّهم بناءً على الاعترافات المدوّنة، فتعلن المحكمة الصّفقة مُلزمة، وينتهي الأمر.

في الخارج، وقف جورج يترقّب قدوم المدّعي العام. كان يشعر بمراوغته، وقد تسلّح بخطّة «ب» رسمت رنيم تفاصيلها ببراعة. لمح الرّجل يقترب محفوفًا برجال الإعلام والمصوّرين. تصافحا أمام العدسات، ثمّ قال جورج بصوت خافت:

– اتّفاقنا سارٍ، أليس كذلك؟

ضحك المدّعي العام وهو يقول بنبرة ساخرة:

– هل تظنّ مساعدتك المتحذلقة أنّ التّصريح بالصّفقة في البرنامج خاصّتها سيلوي ذراعي؟ ما الذي يجعلني أتهاون مع عمر الرّشيدي الآن وقد فقدت المتّهم الرّئيسي؟

– أخلاقيّات المهنة؟ احترام المواثيق والعهود؟

تعالت قهقهات الرّجل من جديد، ثمّ قال:

– هل هذا كلّ ما لديك؟

– بالتّأكيد لا...

ابتسم جورج، ثمّ لوّح بملفّ مكتنز في قبضته:

– هذه دعوى قضائيّة نعتزم رفعها على الفور إذا لم تتمّ الصّفقة في الدّاخل حسب الاتّفاق.. شبهات حول تعاون مؤسسّة النّيابة العموميّة مع مأجورين أجانب، لتيسير اغتيال موكّلي وصاحبه.. مرّة أخرى!

– ماذا تعني؟

– الحراسة الكرتونيّة عند غرف المشفى لم تكن كافية لحماية هيثم الأندلسي من القتل المتعمّد.. لدينا هنا تقرير الطبّ الشّرعي، شهادات أفراد الطّاقم الطبّي، وصور كاميرات المراقبة في أقسام الجراحة والعناية المركّزة...

منحه جورج دقيقتين ليتفقّد محتويات الملفّ ويتيقّن صدق التّهديد، ثمّ أضاف بنبرة متشفّية:

– أنت تعلم أنّ قضايا كبيرة قد تنهار تمامًا بسبب «عيب إجرائي».. لذلك لا تحاول التّلاعب الآن، فقد تدفع ثمنًا لا تقدر على تحمّله!

اكتست ملامح الرّجل قناعًا من الجمود، ثمّ سبقه إلى داخل القاعة بخطوات واسعة. تنهّد جورج وهو يلملم أوراقه. يعلم أنّ التّهديد الذي بين يديه قد يتحوّل هباءً منثورًا، بعد سنوات من المرافعات والمراوغات. والمدّعي العام يعرف ذلك أيضا. كلاهما يقف أمام «عصفور في اليد»، ويراقب «العشرة التي تلوح فوق الشّجرة». سجن عمر الآن لخمس سنوات يعتبر عصفورًا واحدًا، في حين أنّ المضيّ في القضيّة قد يُكسب الادّعاء حكمًا طويلا جدّا.. لكنّ الدّعوى الثّانية قد تضرب شموخ مؤسّسة النّيابة العموميّة في مقتل.

غير أنّها مخاطرة أيضا بالنّسبة إلى الدّفاع، فنتائجها غير مضمونة.. لكنّها إن أفلحت، فقد يكسب عمر براءته لعيب في الإجراءات! إلّا أنّ جورج لا ينوي إفلات العصفور الذي بين يديه. خمس سنوات، خير من المؤبّد الذي يلوح شبحه في الأفق.

ضرب القاضي بمطرقته معلنًا بدء الجلسة، ثمّ أشار إلى منصّة الادّعاء لتلاوة لائحة الاتّهام. وقف المدّعي العام، ناقلا نظراته بين جورج وموكّله، ثمّ استدار إلى القاضي وألقى بأسلوب مسرحيّ:

– نظرًا لتعاون المتّهم وإقدامه على الاعتراف، وإدلائه بمعلومات قيّمة تخصّ الجماعة الإرهابيّة.. فإنّ الادّعاء يرجو من سيادة القاضي إسناد حكم مخفّف، وإغلاق ملفّ القضيّة.

– هل من حكم مقترح؟

- خمس سنوات، سيّدي الرّئيس.

- خمس سنوات إذن!

ثمّ ضرب القاضي مرّة أخرى معلنًا تثبيت الحكم.

***

تعالت طرقات ملحّة على باب الشّقة ذلك الصّباح. لم تكن تشبه طرقات عائشة المحتشمة، ولا نغمات رنيم الموقّعة. كانت ضربات صارمة وحازمة، تتضمّن تهديدًا خفيًّا، تدركه بقلبها.

تطلّعت ياسمين من العين السحريّة قبل أن تفتح، فتسمّرت مكانها وهي تحدّق في البزّات الرّسميّة للشّرطة الفرنسيّة. أفرجت دفّة الباب في توجّس، فبادرها الضابط بنبرة آلية:

- سيّدة ياسمين عبد القادر؟

أومأت علامة الإيجاب، فأضاف على الفور:

- تفضّلي معنا رجاءً.

التفتت إلى فاطمة التي أطلّت من الغرفة الدّاخليّة فزعة، وقالت تطمئنها:

- سأرافق الضابط لبعض الوقت، وأعود سريعًا.

لم تكن واثقة ممّا تقول، لكنّها حاولت أن يبثّ صوتها المهتزّ طمأنينة تفتقدها إلى والدتها. لم تكن تعلم أنّ مرحلة من المحن الجديدة تبدأ في التوّ واللّحظة.

وصلت إلى مركز الشّرطة في عربة التّرحيلات، مثل سجين أو متّهم، فاقتادها الضّابط إلى غرفة التّحقيق. هناك، لبثت ثلاث ساعات لم يخاطبها خلالها بشر. تركوها فريسة لهواجس ومخاوف لا حصر لها ولا عدّ، ثمّ دخل ضابط ثانٍ، ليستمرّ الاستجواب ساعتين أخريين.

انهالت عليها الأسئلة، سطحيّة بسيطة أوّلا، ثمّ شائكة متربّصة بدقائق حياتها ثانيًا.

– منذ متى تلبسين الحجاب الإسلاميّ؟

– عشر سنوات.

– هل أجبرك زوجك على ارتدائه؟

– لم أكن أعرفه حتّى آنذاك!

– والدك إذن؟

– لقد عشت برفقة والدتي، وهي مطلّقة.. في حين تزوّج والدي بفرنسيّة، وعاش الثلاثين سنة الماضية كلّها في فرنسا.. وقد كان مواطنا صالحًا جدًّا، حسب المعايير الفرنسيّة!

– ما الذي دفعك إلى ذلك إذن؟

– قناعة شخصيّة!

ثمّ يغيّر الموضوع فجأة:

– هل كنت تعرفين عن نشاط زوجك الإرهابيّ؟

تمالكت نفسها، حتّى لا تنفجر في وجهه، وتشرح له بلغته الفجّة ماهية الإرهاب الحقيقيّ! أخذت نفسا، وحبست عبراتها لتقول بصرامة:

– لا!

– هل سبق له السّفر إلى الشّرق الأوسط؟

قالت في سخرية:

– أنتم تعرفون أكثر منّي، أين ذهب ومن أين أتى!

– أجيبي على قدر السّؤال.

– لا!

– هل كان يتحدّث عن المشروع أمامك؟

– نحن عائلة تقليديّة جدّا.. النساء لا يتحدّثن في مسائل العمل!

حدجها بنظرة مستاءة، ثمّ واصل:

- ما هو رأيك في نشاط حركة المقاومة الفلسطينيّة؟

- لا رأي لي.. لا أهتمّ بالسّياسة!

- اسم ولدك، عزّ الدّين.. أليس كذلك؟

- نعم.

ارتفع وجيب قلبها عند ذكره.

- من اختار اسمه؟

- والده.

- هل تعرفين من هو عزّ الدّين القسّام؟

- لا أعرف!

- هل تعتقدين أنّ زوجك قد اختار الاسم تيمّنا به؟

- لا أعرف!

عادت إلى الشّقة مساءً وهي ترتعد. غيّرت ثيابها، تتخلّص من رائحة الخوف والظّلم التي تلتصق بها، وسارت إلى المستشفى على الفور. احتضنت ولدها الذي لم تتأخّر عنه

قطّ منذ ولادته، وأخذت تبكي بحرقة. لأوّل مرّة، منذ رحيل هيثم، كانت تشعر بأنّ ولدها في خطر. لا تدري ما وجه التّهديد الذي يحيق بهما، لكنّه تستشعره بكلّ مسامّ جلدها، مثل رادار أمومة يعمل بالتقاط أشعّة غير مرئيّة.

ولم تكن واهمة.

تكرّر استدعاؤها في الأيّام التّالية. ما إن يتعالى الطّرق العنيف على بابها، حتّى يسقط قلبها بين قدميها. تسير إلى حتفها مستسلمة، تحتمل ساعات الانتظار الفارغة مثل كلّ كرّة، ثمّ تردّ على الأسئلة ذاتها بسماجتها ووقاحتها المعهودة.

قال الضابط ذات مرّة، وهو يستمتع بارتجاف أطرافها أمام نظراته الماكرة:

- أنت فرنسيّة؟

- نعم.

- منذ متى؟

- منذ ولادتي.. كان والدي قد تجنّس، فأصبحت فرنسيّة أيضا.

- لكنّك لم تعيشي طويلا في فرنسا.

- لقد غادرتها في سنّ صغيرة.. ثمّ رجعت لأتابع دراستي الجامعيّة.

- زوجك فرنسيّ أيضا.

- نعم.

- هل تعلمين أنّ الجنسيّة الفرنسيّة مثلما توهب لمن يستوفي معايير المواطنة، فإنّها قد تسحب ممّن لا يستحقّها!

هزّت كتفيها في لامبالاة. كان الأمر بالنّسبة إليها سيان. لم تسعَ إلى اكتساب المواطنة الفرنسيّة، ولن يضرّها أن تُسحب منها.

- الدّولة تمنحك فرصة إثبات ولائك واستحقاقك للمواطنة.. تغيّرين اسم ولدك، بإمكانك نسبه إلى نفسك.. ثمّ تتبرّئين من هيثم الأندلسي، تسجّلين اعترافًا تقولين فيه أنّك لا تعرفين شيئا عن نشاطه، ولا تشاركينه قناعاته...

عقدت الصّدمة لسانها. جفّ حلقها، واجتمعت العبرات في مقلتيها. همهمت في ارتباك:

- وهل يكفي هذا؟ لن يتمّ استدعائي بعد ذلك؟

هزّ الضّابط كتفيه في استهانة، ثمّ قال:

- ربّما. لو كنت مقنعة!

تزدرد ريقها بصعوبة، إنّها تفكّر في ولدها. من له إذا حصل لها شيء.. أيّ شيء؟ لكنّها تثوب إلى رشدها. لقد كان هيثم قويّا في الحقّ، وعلّمها ألّا تنحني أمام الإهانة، وألّا تهب خدّها الثّاني لمن يصفع خدّها الأوّل. قالت في ثبات:

- نحن شرقيّون جدّا سيّدي الضابط.. إذا تبرّأت من زوجي، فلن تغفر لي عائلتي أبدًا.. سأصبح منبوذة بينهم، ويكبر ولدي بلا نسب ولا أهل!

افترّ ثغره عن ابتسامة صفراء ثمّ قال:

– أرى أنّك لم تسأمي زياراتنا بعد! أراك في المرّة القادمة!

وفي كلّ مرّة تمضي فيها ساعات المهانة في مركز الشّرطة، كانت تلازمها الكوابيس. ترى نفسها في غرفة التّحقيق المظلمة، وقد شدّ حجابها عن رأسها، ومزّق ثوبها. ترى أهوالا سمعت عنها في سجون أخرى، لمناضلات تحمّلن الويلات، وثبتن في وجه جلّاديهنّ.. فانتهين منتهكات الكرامة أو الجسد.

تبيت ترتعد، يتفصّد جبينها عرقًا، وقد يجافيها النّعاس حتّى ساعة متأخّرة، فيطلع عليها النّهار وهي لم تذق من النّوم إلّا النّزر اليسير، وتجرّعت الكثير من مرارة الكوابيس وانتفاضات الذّعر المتكرّرة.

كان عليها أن تحتمل، حتّى يشتدّ عود عزّ الدّين، ويسمح له بمغادرة الحضانة. لقد ترقّبت ذلك اليوم بفارغ الصّبر، ظنّا منها —عبثًا— أنّ مأساتها ستنتهي حين تترك الشقة.

كان يوم جمعة، احتفلت فيه بعودتها وصغيرها إلى منزل جدّه. استقبلتها زهور بالأحضان، وأخذت عنها عزّ الدّين الذي كان في نظر الجميع عوض الله عن فقدان هيثم. تحتضنه زهور وتطبع قبلتين سخيّتين على وجنتيه، وتبكي. ثمّ يحتضنه عبد الحميد، يشتمّ رائحة الفقيد فيه، ويبكي. كان قد أتمّ شهره الأوّل منذ أيّام قليلة، واقترب وزنه من الكيلوغرامات الثلاثة. اكتمل نموّ رئتيه، وغادرته علامات اليرقان وبرودة الأطراف. كان مولودًا كامل النموّ، بهيّ الطّلعة، وقد أخذ يتجاوب بقدر طفيف مع مداعبات المحيطين به، فيستجلب البسمات والآهات.

كانوا يجتمعون على وجبة غداء عائليّة، يغالبون الألم والحزن الرّابض على قلوبهم، ويأملون خيرًا قد يحطّ على أوجاعهم فتطيب.

على الشّاشة، كانت النّشرة تنقل أخبارًا عن «ثورة الياسمين» التي اندلعت منذ أيّام في الولايات التّونسيّة واستشرت في الشّوارع والسّاحات. انبرى الجميع يناقشون ويحلّلون

حيثيّات الانتفاضة الشّعبيّة التي أوقد شرارتها بائع متجوّل أضرم النّار في جسده، احتجاجًا على ظروف العيش المزرية.

لكنّ ياسمين كانت ترقب الباب في وجوم، وتترقب زوّار الصّبح الذين لم تتوقّع انقطاعهم عنها بتلك السّهولة. تمتدّ يد فاطمة، لتربّت على كتفها وتبتسم مطمئنة:

– لن يأتوا إلى هنا.

كانت تريد أن تصدّقها. تأمل أن تنتهي فقرة الاستجوابات وتنتهي إلى أيّام رتيبة لا رعب فيها ولا إثارة. ذلك كلّ ما ترجوه.

باتت ليلتها الأولى في غرفة هيثم القديمة، تصارع الأرق الذي مازال يهزمها، فإذا هزمته أخيرًا، صرعتها الكوابيس. تفتح عينيها فجأة في جوف اللّيل، تستقيم جالسة وهي تلهث، تحدّق في الفراغ والظّلمة، ثمّ تضمّ طفلها إلى صدرها وتأخذ في البكاء.

يوقظ نحيبها المتقطّع في الدّهماء سكّان الدّار، فتتجدّد أوجاعهم، ويستسلمون واحدًا إثر الآخر إلى الألم ينخر صدورهم. ينشجون في صمت، كلّ في سريره، مخفين العبرات عن جيران الغرفة.

تهمس فاطمة إلى زهور وهما تقفان جنبًا إلى جنب إزاء أواني الطّبخ التي تغلي في جوفها وجبة الغداء:

– أنا خائفة على ياسمين!

تتنهّد زهور وهي تقول مؤمّنة:

– لقد تحمّلت الكثير.. قيصريّة وافتراق عن زوجها ورضيعها وتردّد على المستشفى كلّ يوم، ثمّ الزّيارات المفاجئة للشرطة والاستجوابات التي لا تنتهي، والكوابيس التي توقظها كلّ ليلة...

– لعلّه اكتئاب ما بعد الولادة؟

هزّت زهور رأسها:

– لا أشكّ في هذا.

– هل تراها تقبل الذّهاب إلى طبيب نفسيّ؟

– لن نخيّرها. سأتّصل وأحصل لها على موعد. هناك عيادة قريبة في شارع المحطّة...

تعالى رنين جرس المنزل فجأة، فتبادلت السّيدتان نظرات متوجّسة.

– هل تنتظرين زوّارًا؟

– كلّا.

تركت زهور ما بين يديها، جفّفت كفّيها في مريلة المطبخ ثمّ سارعت لتفتح الباب. تسمّرت مكانها أمام مرأى ضابط الشّرطة الذي طالعها بنظرة متعالية:

– السّيدة ياسمين عبد القادر هنا؟

مساء الخامس عشر من يناير ٢٠١١، كان أفراد العائلة جميعًا غائبين عن المنزل، باستثناء ياسمين وطفلها. كانوا قد انضمّوا إلى المظاهرات التي نظّمتها الجالية التّونسيّة لمساندة الثّورة الشّعبيّة، لتتحوّل الحركة الاحتجاجيّة إلى مسيرة فرح عارمة بعد الرّحيل المفاجئ للرّئيس التّونسيّ وتخلّيه عن السّلطة.

انطلقت المظاهرات الحاشدة بحضور نحو ثمانية آلاف من التّونسيّين المقيمين بباريس وضواحيها من ساحة «الجمهوريّة» انتهاءً إلى ساحة «شاتليه».

سارت زهور وفاطمة وميساء وعبد الحميد، بالإضافة إلى الصّغير وائل، رافعين الأعلام التّونسيّة، منتشين بتحقيق حلم بعيد المنال. لم تكن زهور وعائلتها قد زاروا موطنهم منذ عشرين عامًا، بعد أن أصبح عبد الحميد مطلوبًا لدى النّظام السّابق، إثر انتخابات ١٩٩١.. والآن، فتحت أبواب الوطن على حين غرّة.

همست زهور إلى فاطمة باكية، وهي تلوّح بالرّاية الحمراء الموشّاة بالنجمة والهلال فوق رأسيهما:

– هل كان يجب أن أفقد ولدًا لأستعيد وطنًا؟ كأنّ السّعادة الكاملة لا تجتمع للمرء أبدًا!

ربّتت فاطمة على ظهرها مواسية وقالت:

– لقد فقدت ولدًا وكسبت آخر.. «الولد سرّ أبيه»!

تنجح تلك الحيلة كلّ مرّة في تحويل وجهة أفكارها. تستحضر عيني عزّ الدّين المتألقتين وراحتيه المنكمشتين على سبّابتها، فتلين ملامحها وتبتسم رغمًا عنها.

*

كانت تزور ياسمين لأوّل مرّة منذ انتقالها إلى منزل والدي هيثم. مضى أسبوعان الآن. لكنّها لم تمتلك الشّجاعة لمواجهة الحزن العائليّ المتوقّع. لعلّها استغلّت فرصة غيابهم لتنفرد بها أخيرًا.

جلست رنيم إلى جوار ياسمين على الأريكة. يتغيّر المكان، لكنّ الجلسة تحتفظ بروحها الدّافئة.

– لماذا لم تخبريني.. بشأن الاستجواب؟

رفعت ياسمين كتفيها، وقالت رغم ألمها:

– ظننت أنّ الأمر سينتهي.. إذا كنت متعاونة...

– في المرّة القادمة، اتّصلي بي على الفور! حالما يطرقون الباب، سأسبقك إلى مركز الشّرطة.. أيّ منطقة؟

حرّكت ياسمين رأسها يمينا وشمالا.

– لا أعرف!

– لا بأس.. في أيّ وقت يأتون؟

– العاشرة صباحًا.. غالبًا. ليس بشكل يوميّ.

– سأرابط عند الباب، العاشرة صباحًا.. كلّ يوم.

همست ياسمين في أسف:

- لست مضطرّة لذلك!

- بلى.. هذا سلوك غير دستوريّ ولا يمكن السّكوت عليه! لست مجبرة على مخاطبتهم، وحضور المحامي من حقّك في صورة الاستجواب!

تنهّدت ياسمين في إنهاك وتمتمت:

- أريد فقط أن ينتهي هذا الكابوس...

مسحت رنيم على رأسها في تعاطف وسألت:

- هل ذهبت إلى الطّبيب النّفسيّ؟

أومأت ياسمين ثمّ قالت:

- لم يأت بجديد.. اكتئاب حادّ!

هتفت رنيم بحماس:

- يجب أن تغادري المنزل.. تغيّرين الجوّ، تتمشّين تحت أشعة الشّمس!

- لا يمكنني ترك عزّ الدّين!

كان ذلك هاجسها الأوحد. أن يصاب ولدها بسوء. في كلّ مرّة تأتي عربة الشّرطة لتأخذها، يلازمها ذلك الهاجس الممضّ، أن تغفل عنه جدّتاه، أو يخطفه غرباء...

- خذيه معك!

- أخاف عليه من البرد.

تأفّفت رنيم من مماطلتها، فغيّرت ياسمين الموضوع على الفور:

- خبّريني.. ما الجديد عندكنّ؟

تنهّدت رنيم وقد أدركت ما ترمي إليه.

- سكينة تحلّق على أجنحة السّعادة. لقد أنهت وثائق حضانة ميار.. نقلتها إلى مدرسة قريبة، ترافقها كلّ صباح إلى دروسها، ثمّ ترجع لاصطحابها.. حتّى أنّها تداهمها في فترة الاستراحة، لتشاركها وجبة خفيفة. إنّها تلازمها كظلّها!

ابتسمت ياسمين في رضا. لقد عانت سكينة طويلا، وقد منّ الله عليها أخيرًا بالاجتماع بصغيرتها. من حقّها أن تقدّس كلّ لحظة تمضيها إلى جوارها الآن. قالت بلهجة ذات مغزى:

- الأمومة.. إنّه شعور مدهش!

تحسّست رنيم بطنها بشكل غريزيّ، وشردت نظراتها لبرهة، ثمّ استطردت:

– إنّهما تتابعان معًا حصص علاج أسريّ.. البنت تعاني من تشتّت رهيب، نستيقظ على صراخها كلّ ليلة. تنتابها نوبات غضب، تتهم سكينة بأنّها ستتخلّى عنها.. كما فعل الآخرون. إنّها فاقدة للثقة في مؤسّسة «العائلة».

ابتسمت ياسمين في مرارة وقالت:

– كلّنا فقدنا الثّقة بشكل أو بآخر.. أتمنّى لو كنت حضرت هذا النّوع من الجلسات في صغري!

رنت إليها رنيم في استغراب. لم تكن تتحدّث كثيرًا عن طفولتها، وافتقادها لحضور أبيها في حياتها. إنّها تفصح الآن، لأنّها تخشى على ولدها المصير ذاته. ثمّ تسلّلت خواطرها إلى عائلتها.. والديها ورانيا.. شهاب وهي. كلّهم بحاجة إلى إعادة تأهيل. همست:

– صدقتِ!

*

حين رجع جموع المتظاهرين إلى المنزل، كان هناك شيء غريب في الأجواء، وفي النّظرات التي يتبادلونها.
شيء آخر، غير الفرح الذي حطّ بين جنبات القلوب منذ نهار الأمس الأسطوريّ، لرحيل زعيم عربيّ بعد خروج شعبه يحتجّ في الشّوارع في سابقة فريدة من نوعها! شيء غير الحزن، الذي عشّش في الصّدور واستوطن، منذ رحيل الابن والأخ الغالي، فبهت طعم كلّ شيء.. حتّى جاء الفرح منقوصًا، كأنّما هو جرعة ماء خفّفت طعم ليمون لاذع، دون أن يقضي على الحموضة تمامًا.

شيء يشبه خيوط حكاية، أخذت تنسجها أصابع خفيّة، لكنّ بساطها لم يكتمل بعد. وحتّى يستوي النّسيج، انعزل عبد الحميد مع زهور وفاطمة في الشّرفة الخلفيّة وأوصدوا الباب على مجلسهم.

همست ميساء إلى ياسمين وهي ترنو إلى الباب المغلق:

– قرار مصيريّ يتخمّر.. أشتمّ رائحته!

حين خرجوا بعد ساعتين، اجتمعت العائلة في الصّالة. كانت زهور من تكلّم أوّلا:

– لقد منّ الله علينا برفع الظّلم عن بلادنا.. ونظنّ —أنا ووالدكم— أنّ الأوان قد حان، لنكون جزءًا من قصّة الوطن، مرّة أخرى!

تبادلت ميساء ووائل نظرات مرتبكة، فأردفت زهور:

– لقد حرمنا من دخول تونس طيلة هذه السّنين.. اليوم، تفتح الأبواب على مصراعيها، فهل نولّيها ظهرنا؟ وماذا كسبنا في حياة الغربة المديدة هذه، غير وجع القلب وفقد الولد؟

تأتأت ميساء:

– تقصدين.. العودة نهائيّا؟

أومأت زهور موافقة، ثمّ أخذت فاطمة الكلمة:

– آن الأوان ليجتمع شملنا في وطننا. لقد كنت أتمنّى أن ينشأ حفيدي بالقرب منّي.. وأن تؤنس ضحكاته شيخوختي ووحدتي. ولم أكن أتخيّل أن ترفع الحواجز التي فرّقتنا في القديم بين يوم وليلة.. لكنّه عوض الله الكريم!

رنت إلى ياسمين وهي تضيف:

- ثمّ يا ابنتي، لم يعد يجدر بك البقاء في هذه البلاد. لن تشفي إلّا إذا ابتعدت عن هذه الأرض المشؤومة وناسها الملاعين!

قال عبد الحميد:

- أرضنا ودارنا في «طبرقة» موجودة.. تشرف على جبال وسهول وبحر وخضرة.. جنّة على الأرض! سيعجبكم المكان هناك.

تمتمت زهور وهي تغالب دمعها:

- لم أعد أحتمل هذه البلاد التي تعتبر ولدي إرهابيّا! أريد أن أكون أمّ الشّهيد، وأفتخر به على رؤوس الملأ!

كأنّ عبراتها استدعت بكاءهنّ، ولعلّ عبراتهنّ مهيّأة للهطول في كلّ آن، فقد انهمرت على الفور بضغطة زرّ. تنحنح عبد الحميد مقاطعًا وصلة النّشيج الجماعيّة:

- على بركة الله.. ياسمين وفاطمة وعزّ الدّين، اسبقونا بالسّفر في أقرب وقت.

- وأنا أيضا!

هتفت ميساء في حماس، فهزّت زهور رأسها أن لا بأس. واصل عبد الحميد:

- قد نحتاج شهرين أو ثلاثة، لتصفية كلّ أمورنا هنا.. ثمّ نلحق بكم.

بعد أربع سنوات (مارس ٢٠١٥).

خرجت رنيم من المبنى على عجلٍ وهي تقود طفليها أمامها في اتّجاه السيّارة. لقد استغرق منها تغيير ثيابهما وتسريح شعريهما ثمّ تجهيز الإفطار وحزم وجبات خفيفة من أجل النّهار الطويل، وقتًا ثمينًا لا تمتلكه. أجلست كليهما في المقاعد الخاصّة في القسم الخلفيّ، وربطت حزامي الأمان، ثمّ سارعت إلى عجلة القيادة. السّاعة تقترب من العاشرة، وهي متأخّرة عن دوامها في مكتب المحاماة.

ارتفع رنين يعلن تلقّيها اتّصالًا مرئيّا، فشبكت هاتفها على جهاز العرض الخاصّ بالسيّارة، ليظهر وجه ياسمين على الشّاشة.

– صباح الخير!

كانت تبدو في مزاج جيّد، في ثياب بيتيّة مريحة، وبين كفّيها فنجان قهوة يتصاعد بخارها.

– أنت تقودين؟

تذمّرت رنيم وعيناها تركّزان على الطّريق أمامها:

– يوم سيّء! لقد تأخّرت على موعد هامّ.. ولا أحد في الشقّة لمراقبة الطّفلين!

لوّحت ياسمين للتّوأمين في تودّد، فألقيا التحيّة بصوت عالٍ.

– عزّ الدّين.. تعال. تريد التحدّث إلى صديقيك؟

ملأ وجه الطفل ذي السّنوات الأربع ونيف الشّاشة، وهو يقرّب أنفه من العدسة ويهتف:

- كيف الحال؟

شدّت ياسمين الجهاز من بين يديه، وأجلسته في حجرها، ليظهر وجهاهما متجاورين. همست:

- تكلّم بهدوء.. إنّهما يسمعانك.

- هل تذهبان إلى المدرسة اليوم؟

أجابت رنيم:

- اليوم هو الأربعاء يا حبيبي.. لا مدرسة!

تلك العطلة الأسبوعيّة الخاصّة بالمدارس الفرنسيّة كانت مصدر إرباك لنظام عملها.

رفع عزّ الدّين رأسه إلى والدته وقال في احتجاج:

- لا مدرسة لي أيضا ماما!

ضحكت ياسمين وقالت:

- حسنا.. سننظر في ذلك.

ثمّ أضافت وهي ترقب وجه رنيم العابس:

- ماذا فعلت بشأن السّكن؟ هل وجدت شقّة الأحلام؟

- ليس بعد.. لكنّنا نحاول!

بدت نظرة مشبعة بالحنين في عيني ياسمين وهي تهمس في حسرة:

- هل تتركن الشقة (٤٠٤) حقّا؟ لا أتخيّل باريس بدونها!

ضحكت رنيم وهي تقول بسخرية:

- لقد صارت مثل علبة سردين الآن! أتوق إلى اليوم الذي يصبح فيه لكلّ منّا فضاؤه الخاصّ.

عرّجت إلى طريق فرعيّ مبتعدة عن زحام الشّوارع الباريسيّة، ثمّ هتفت وقد تذكّرت شيئا:

- كيف حال عروسنا؟

- إنّها على وشك الجنون! وستجنّنني معها!

ضحكتا معا، ثمّ قالت ياسمين:

- قودي على مهل.. اتّصلي بي لاحقا، حين تأخذين استراحة.

– بالتّأكيد.. أراك لاحقا.

وصلت رنيم إلى المكتب في وقت متأخّر. إنّه واحد من تلك الأيّام التي تضطرّ فيها إلى لخبطة نظام يومها، والعناية بالطّفلين بنفسها. منذ ولادتهما، عهدت إلى سكينة بمهمّة رعايتهما، لتستأنف عملها بشكل طبيعيّ بعد إجازة وضع قصيرة.

كان ذلك مناسبًا للجميع. سكينة كانت تحتاج مصدر دخل ثابتا لا يتطلّب كثرة خروج وتنقّلات، فقبلت عرض رنيم بسرور بالغ. لم تعد ترافق ميار ذهابًا وإيابًا إلى المدرسة، بعد أن تطوّعت رانيا للنهوض بتلك المهمّة. كان ترتيبًا عائليّا مثاليّا، حيث بعضهنّ يهتمّ ببعض.

كنّ يبدون مثل عائلة ذات ثلاثة أجيال متعايشة في شقّة واحدة. تبدو سكينة مثل جدّة يافعة، لما تخطّ التّجاعيد بشرتها. رنيم ورانيا وميار بناتها، رغم فروقات السنّ، والتّوأمان حفيداها.

يرتاد الطّفلان المدرسة التمهيديّة الآن. في فرنسا، المدرسة إجباريّة منذ سنّ الثالثة. غير أنّ اليوم هو الأربعاء –يوم إجازة أسبوعيّة لطلّاب المرحلة الابتدائيّة– وسكينة غائبة.

– سيّد برنار، آسفة على التّأخير.. تفضّل أرجوك إلى المكتب، سأتبعك في الحال.

أجلست رنيم الطّفلين عند مقاعد غرفة الانتظار وتلفّتت حولها. لم تكن مساعدتها في مكتبها. انحنت لتكون في مستوى رأسيهما وهمست:

– كونا عاقلين.. ستأتي لوسي خلال دقائق. ماما ستكون بالدّاخل.. لديّ عمل. لن تحدثا الفوضى، أليس كذلك؟

قالت الفتاة بلهجة تفوق حجمها وسنّها:

- لا تخافي يا ماما.. سنكون بخير.

جلست الطّفلة ذات السّنوات الثلاث والنّصف، وساعدت أخاها على اعتلاء مقعده، ثمّ أخرجت من حقيبتها الصّغيرة قطعة كعك وجلست تقضمها بهدوء.

ابتسمت رنيم في رضا، ثمّ غابت داخل المكتب.

بعد دقائق، وصل رجل في منتصف الثلاثينيات إلى غرفة الانتظار. لم تكن لوسي قد عادت إلى موقعها. من خلف الباب المغلق، كانت أصوات حديث مكتوم تتسرّب من المكتب إلى الخارج. تلفّت حوله، ثمّ اتّخذ مجلسًا إلى جوار الطّفلين.

بادرته الطّفلة بلهجة واثقة:

- أنت هنا من أجل ماما؟ لديها عمل...

رفع حاجبيه في دهشة ثمّ قال في اهتمام:

- ماما بالدّاخل؟

هزّت الطّفلة رأسها علامة الإيجاب. كان يجب أن يدرك أنّها نسخة مصغّرة من رنيم. شعرها الكستنائيّ القصير، وعيناها العسليّتان الواسعتان.. وتلك الأناقة الفطريّة التي تليق بها، وتبديها أكبر من سنّها.

- ما اسمك يا حلوة؟

- أنا سمر.. وهذا أخي.. عمر!

تبدّت الصّدمة في عينيه، ثمّ قال في دهشة:

- أنتما توأمان؟

- أنا أكبر منه.. بعشر دقائق.

بينما اهتمّت سمر بمحادثة الرّجل الغريب، كان عمر الصّغير منشغلا بأزرار معطفه. يفكّها ثمّ يفشل في إغلاقها. بعد محاولات مضنية، استرسل في بكاء طفوليّ متذمّر.

- لا تغضب يا صديقي.. سأزرّره من أجلك.

هبط الرّجل على ركبتيه أمام الولد، وأحكم تزرير المعطف بالكامل. توقّف الطّفل عن البكاء ليراقب الغريب في انتباه، وتتحوّل تكشيرته تدريجيّا إلى ابتسامة واسعة.

- انتهينا!

فتح باب المكتب فجأة، وظهرت رنيم وهي تصافح موكّلها مودّعة. خطى السّيد برنار مغادرًا، بينما تسمّرت رنيم مكانها في صدمة. حدّقت في الرّجل الذي استوى واقفًا قبالتها في تشوّش، ثمّ هتفت غير مصدّقة:

- عمر!

أجاب الولد على الفور:

- نعم ماما!

ارتبكت الكلمات على لسانها، ولم ينقذها إلّا دخول لوسي. قالت على عجل:

- تعال يا حبيبي.. اجلس أنت وأختك بجانب لوسي حتّى أنتهي من العمل.. اتّفقنا!

ثمّ التفتت إلى عمر وقالت بنفس مقطوع:

- تفضّل!

سبقته إلى داخل المكتب وهي تحاول أن تتذكّر تاريخ اليوم، وتقارن بفترة الحكم التي عوقب بها. لكنّ حساباتها لم تفلح. قالت في ارتباك:

- متى خرجت؟

- اليوم...

أضاف بنبرة متهكّمة:

- لقد أطلق سراحي مبكّرا، لحسن السّيرة والسلوك!

- آه!

لذلك لم تكن الحسابات صحيحة.

- تفضل.. أرجوك!

جلس قبالتها في استرخاء، ثمّ قال:

- لم أجد جورج في مكتبه.

- تريد أن تترك له رسالة؟

بدا عليه التردّد، ثمّ قال أخيرا:

- ربّما يمكنك المساعدة؟

- بالتّأكيد.

- هل تعرفين مكان ياسمين؟

- ياسمين؟ لقد سافرت إلى تونس منذ أربع سنوات.. لكنّنا على اتّصال.

- جميل.

همّت تقول بأنّها حادثتها للتوّ. لكنّها عدلت. ستجيب على قدر السّؤال. راقبته وهو يخرج ظرفا من جيب سترته، ثم يضع على المكتب أمامها صكّا بنكيّا ويضيف:

- هل يمكنك توصيل هذا إليها؟

تناولت رنيم الصكّ بين يديها في شكّ:

- ما هذا؟

- فلنقل.. أنّها أرباح الشّركة، للسّنوات الماضية.

غمغمت مبهوتة:

- أرباح الشّركة؟ أيّ شركة؟ الشّركة التي صودرت منتجاتها وأتلفت؟ أيّ أرباح قد تكون لها؟

ابتسم عمر وقال:

- لا داعي لتعرف ياسمين شيئا عن هذا.

حدّقت رنيم في الرّقم المدوّن على الصكّ، فازدادت عيناها اتّساعًا. هتفت غير مصدّقة:

- هذا مبلغ ضخم! هذه قيمة التّعويض الذي حصلت عليه، في قضيّة الانفجار.. أليس كذلك؟

لم يكن ما صرفه على المشروع يتجاوز نصف المبلغ. مازال حسابه مكتنزًا، والرّقم الذي يظهر على الصكّ يشهد بذلك. أيّ شخص لا يعرف الرّقم الحقيقيّ —مثل رنيم— سيتوقّع أنّه لم يلمس التّعويض قطّ. وذلك يثقل كاهله بشكل لا يوصف.

زفر في ضيق وقال:

– لقد حصلت على تعويض سخيّ، لكنّ زوجة هيثم وابنه لم يحصلا على شيء على الإطلاق! لم يعوّض خسارتهما أحد.. وإن كنت قد خسرت صحّتي، فقد خسر هو حياته!

هتفت رنيم في حرارة:

– أنت تحاول التّكفير عن ذنب وهميّ! ما حصل لهيثم لم يكن ذنبك! أنت ضحيّة.. مثله تمامًا!

ابتسم في مرارة، وقال:

– ليس هناك من كلام قد يغيّر ما أشعر به.. وما رافقني طيلة سنوات الحبس. وفّري جهدك!

أطرقت رنيم في تفكير ثمّ قالت:

– حسنا. لا يمكن لأحد إيداع مبلغ كهذا.. لن يقبل أيّ بنك صرف صكّ بهذا الحجم، ما لم يكن مصدره جهة معروفة! ستتعرّض ياسمين للتّحقيق، وتتّهم بتبييض الأموال...

حملق في الفراغ وقد انتابه الضّيق. لقد كان كلّ همّه أن يتخلّص من العبء الذي ران على صدره، ولم يفكّر في الحيثيّات. قال ببساطة:

– أنت محامية.. ستجدين طريقة ما!

أطرقت رنيم برهة لتفكّر، ثمّ قالت:

– أقترح أن تفتح حسابًا باسم عزّ الدّين وتودع فيه مبلغًا معقولا.. سأخبرها أنّ هيثم أنشأ حسابًا للتّوفير بنفسه منذ بداية المشروع.. وأنّ أرباح الشّركة كانت تحوّل إلى ذلك الحساب في السّنوات السّابقة!

رفع حاجبيه في دهشة، ثمّ أومأ في استحسان:

– ممتاز!

– يمكن أن أخبرها أنّنا وجدنا الوثيقة البنكيّة في ملفّات القضيّة حين كنّا نتلف الأوراق القديمة.. حتّى أبرّر معرفتي بالأمر، وأفسّر أيضا ظهور الحساب المفاجئ بعد كلّ هذه السّنوات.

– لا بأس.. هذا يبدو معقولا.

– لا تنس.. يجب أن يكون مبلغًا مقبولا! قدّر أرباح الشّركة الطّبيعيّة الممكنة في السّنة الواحدة، ثمّ أودع القيمة المناسبة...

فكّر لبرهة، ثمّ قال:

– دعي الأمر لي! سأرسل إليك بيانات الحساب حين أنتهي من المهمّة.

وقف فجأة، وقد كست ملامحه علامات الارتياح. سألت في دهشة:

– هل يعلم أحد بإطلاق سراحك؟

– لا.. باستثناء إدارة السّجن طبعا.

قالت في توجّس:

- أنت تعلم.. فرنسا ليست آمنة بالنّسبة إليك.

زفر وهو يخفي كفّيه داخل جيبي بنطاله:

- أعلم. لن أبقى طويلا.
- أين نويت الذّهاب؟

هزّ كتفيه في استهانة وقال:

- أرض الله واسعة!

ابتعد في اتّجاه المخرج، ثمّ استدار فجأة ليقول:

- أنا مدين لك مرّة أخرى.. لم توات الفرصة لأشكرك على إنقاذ حياتي مرّة ثانية! لولا حسن تصرّفك وسرعة بديهتك.. كنت لأدفع فاتورة مشطّة، من سنوات عمري!

ابتسمت وقد التهبت وجنتاها فجأة، وقالت في سرور:

- هذا ما يفعله المحامي!

شعرت بتردّده برهة، كأنّ على لسانه حديثًا يكتمه. ثمّ ألقى وهو يمضي في سبيله:

- بلّغي سلامي إلى الدّكتور شهاب.

تمت بحمد الله

مكتبة Telegram @t_pdf

شكر

إلى لورا فاطمة ابراهيم أحمد عدوان

المعلومات الخاصة بمخيم اليرموك وفلسطينيي المهجر مستقاة من رسالة الماجستير الخاصة بها، في برنامج علم الاجتماع من كلية الدّراسات العليا في جامعة بيرزيت، فلسطين.

دراسة بعنوان: «صورة فلسطين في روايات اللاجئين الفلسطينيين (دراسة مقارنة بين مخيم قلنديا في فلسطين ومخيم اليرموك في سوريا)»، صادرة في أغسطس ٢٠٠٩.

تنويه

بعض أحداث الرواية مستوحاة من قصّة حياة الشّهيد

محمّد الزّواري

تونس (١٩٦٧ – ٢٠١٦)

مكتبة Telegram @t_pdf